منافح الأيك في مساجلات النخب

(على خطى النقد البناء)

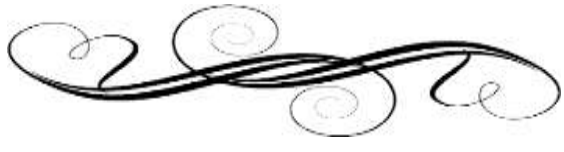

الدكتور

محمد فتحي عبد العال

الطبعة الأولى ٢٠٢٢

ديـوان العـرب للنشـر والتـوزيع

عنـوان الكتاب: منافح الأيك في مساجلات النخب
(على خطى النقد البناء)

اسم المؤلف: الدكتور محمد فتحي عبد العال

رقم الإيـــــداع: 27624 / 2023

الترقيـم الدولي: 5 - 808 - 998 - 977 – 978

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

تـصـميـم الغلاف: منـى المـوجـي

التنسيق الداخلي: محمد وجـيـه

رقـــم الطبـعـة: الطبعة الأولـى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر – بورسعيد

تليفون: 00201211132879 – 00201030502390
بريد الدار: mohamedhamdy217217@gmail.com

منافح الأيك في مساجلات النخب

(على خطى النقد البناء)

الدكتور

محمد فتحي عبد العال

ديوان العرب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى أختي العزيزة الأستاذة "أمنية فتحي عبد العال" والتي حملت على عاتقها مهاماً كثيرة في سبيل إنجاز الكثير من مواد هذا الكتاب ومرافقتي في كثير من اللقاءات والندوات الأدبية وتسجيل محتواها بدقة ومراجعتها معي..
فلها مني كلّ الشكر والتقدير

د.محمد فتحي عبد العال

****

"من نظر في العواقب سلم من النوائب، وزوال الدول اصطناع السفل، ومن استغنَ بعقله ضلّ، ومن اكتفَ برأيه زَل، ومن استشار ذوي الألباب سلك سبيل الصواب، ومن استعان بذوي العقول فاز بدرك المأمول"

عبد الرحمن الجبرتي
(عجائب الآثار في التراجم والأخبار)

....

"قل للذي بصروف الدهر عيرنا ... هل حارب الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف ... وتستقر بأقصى قعره الدرر
فإن تكن نشبت أيدي الزمان (الخطوب) بنا ... ومسنا من تمادي بؤسه ضرر
ففي السماء نجوم ما لها (غير ذي)عدد ... وليس يكسف إلا الشّمس والقمر"

الأمير شمس المعالي أبو الحسن قابوس بن أبي طاهر
وشمكير بن زيار بن
وردانشاه الجيلي، أمير جرجان وبلاد الجيل وطبرستان

....

"إذا أتيح لي أن أنهض بالشعب المصري وأبث فيه بعض هذا الرّوح الأهلي المدني الذي نراه في الأمم الفتية.. فقد نلت المرام ولبلوغ هذه الغاية نفتقر إلى التعليم ولست أقصد بالتعليم مجرد درس الكتب واستظهارها بل تهذيب الأخلاق والتربية الأدبية الاجتماعية التي يتلقاها الأبناء من أمهاتهم فإنّ بلادنا تفتقر إلى تعليم بناتها أشد افتقاراً.. وأقول بوجوب تعليم البنات المصريات"..

السلطان حسين كامل
في حديث مع مكاتب التيمس في مصر -ديسمبر ١٩١٤م

مقدمة

ما دعاني لأن أفرد كتاباً خاصاً لإدارة الحوار مع قرائي ما تعلمته بمجال الجودة من ضرورة التواصل (communication) وتقديم تفسيرات وتوصيات (feedback) كاملة وكافية ووافية نحو أي استفسار مهما كان..

وتعلمت أيضاً أن أحترم الاستفسارات مهما كانت بساطة أطروحاتها أو أصحابها وتأكدت أن عبارة " آن للشافعي (في روايات أبو حنيفة) أن يمد رجله" لا حقيقة لها ولا ينبغي أن تكون بين سائل ومسؤول..

بالتأكيد أنا لست موسوعياً وبعض الأسئلة لا أخفيكم سرّاً أنّها تضعني في كثير من الأحيان في حيرة وفي مأزق البحث عن إجابة منطقية وشافية ومقنعة بعيداً عن التابوهات المحفوظة..

كثيراً ما وضعت نفسي مكان صاحب السؤال وأخذت أعس بين أوراق الماضي ودروب خباياه بحثاً عما أقتنع به أولاً ليتسنّى لي أن أقدمه لقرائي عن طيب خاطر..

ذات يوم قررت الالتحاق بمعهد إسلامي بنظام الدراسة عن بعد يزعم أنّ موطنه الأصلي أمريكا.. الصراحة لم يعنِني في الأمر سواء أكان صدقاً أو كذباً إلا أن أستمر على عهد قطعته على نفسي في الانتظام بالدراسات الإسلامية إذ أحسست بأمان داخلي واطمئنان مع الدبلوم الأول الذي حصلت عليه من المعهد العالي للدراسات الإسلامية واستشعرت أنّ التزود بالدين يبعث في النفس راحة لا تضاهى، فقررت أن أستمرّ رغم سفري للخارج.. سرعان ما ضقت ذرعاً بنظام المعهد الذي يشترط الحضور اليومي على برنامج زووم (*Zoom*) لمدة تتجاوز الساعتين وهذا محال مع

ظروف عملي، فاقترحت عليهم أن تسجل المحاضرات وتترك مسألة الحضور لمن استطاع لذلك سبيلاً، وأوضحت أن بعض الدراسين يضطرون للكذب فيشعلون زر الزووم لمجرد إثبات الحضور وينصرفون لأشغالهم في الحقيقة.. وإذا بمسؤول إحدى المواد وكأنّني أشعلت زناد فكره المنغلق منذ ولادته فبدلاً من أن يستمع ويناقش ويدرس الموضوع من جوانبه تجاهل كلامي بالكلية واستحدث نظاماً جديداً وهو مناداة الطلبة أثناء بث المحاضرة وتسجيل المنتبهين معه فعلياً ووضع لائحة غياب كنت على رأسها... استغربت سلوكه وداخلتني الريبة وسألته عن مؤهلاته العلمية فكتب رداً علي: "وهل يسأل الطالب عن مؤهلات أستاذه ومعلمه؟" فرددت عليه: بالطبع من حق الطالب أن يقف على مؤهلات الأستاذ وإن كانت متوافقة مع تخصصه.. فكتب في برود ترسمه الكلمات: وهل كان لدى البخاري أو الشافعي مؤهلات أكاديمية قبل تصديهم للحديث والفقه؟! ونالني الحجب والفصل من المعهد.. طبعاً عرفت أنّ هذا الأستاذ والذي من المفترض أنّه موكل له الإشراف ومناقشة رسائل ماجستير ودكتوراه "أون لاين" هو مقرئ بأحد المساجد لا أكثر ولا أقل.

ما فائدة ما سردت؟! أريد أن أوضح لك عزيزي القارئ التعريف المثالي والجلي لغياب مفهوم التواصل الفعال وانعدام ثقافة الحوار وتبادل الآراء داخل مجتمعاتنا..

ولن أكون مبالغاً أو لدي استشعار زائد بالذات أو حتّى على بعض عتبات درج الغرور إن قلت إنّي بهذا الكتاب الذي أضعه بين أيديكم به أكون أوّل كاتب مصريّ وعربيّ يتخذ هذه الخطوة ويفرد هذه المساحة الكبيرة لقرائه بحثاً عن قواسم

مشتركة وفهم متبادل من أجل واقع أفضل وغد مشرق عمادهما تاريخ حقيقي أو قاب قوسين أو أدنى منه...
والله من وراء القصد

د.محمد فتحي عبد العال
كاتب وباحث وروائي مصري

****

الأسئلة والأجوبة

1- في قصة "المخالب الناعمة" بمجموعة "حتّى يحبك الله" ذكرت قاب قوسين أن أينشتاين لم يكن يعرف مصطفى مشرفة!! رغم أن الثابت أنهما تبادلا رسائل عديدة ونعاه أينشتاين بعد اغتياله.. فما سبب ما ذكرته؟

بداية فإنّ الدكتور علي مصطفى مشرفة لم يُغتَل فقد مات موتة طبيعية بشهادة أسرته ومسألة علاقته بأينشتاين لا يوجد دليل علمي وعملي عليها سوى صورة تتناقلها المواقع العربية في ميناء بورسعيد عام ١٩٢٣ م، وقصة هذه الصورة أنّ ألبرت أينشتاين قبلها بعام وتحديداً عام ١٩٢٢م، قد فاز بجائزة نوبل للفيزياء وبعدها بدأ سلسلة من الزيارات لمناطق من العالم بصحبة زوجته الثانية (إلسا) في الفترة من أكتوبر ١٩٢٢ وحتّى مارس ١٩٢٣م، وحتّى نفهم نظرة أينشتاين العنصرية للأجانب والشرقيين على وجه الخصوص فيكفي أن نطالع انطباعاته التي دوّنها عنهم، وذلك في مذكراته التي نشرتها جامعة برينستون مؤخراً تحت عنوان: "مذكرات أينشتاين عن رحلاته إلى آسيا وفلسطين وإسبانيا بين عامي ١٩٢٢-١٩٢٣ م"، حيث وصف القادمين لملاقاته في الميناء وكأنّهم "تدفقوا جميعاً من جهنم" ناعتاً إياهم بالشرقيين "القذرين!! " تصور هذه نظرة أينشتاين المتيّم بأقدام النساء وربما كان مصاباً بفتيشية القدم (بالإنجليزية **Foot fetishism :** أو بودوفيليا) ذلك أنّه بحسب موقع "الجزيرة" في مارس ٢٠١٨م، فقد بيعت في مزاد وينرز للمزادات والمعارض في القدس رسالة منه بالألمانية عام ١٩٢١م، يقول فيها: "إلى الباحثة العلمية التي نمت تحت قدميها وجلست لمدة يومين كاملين كتذكار حميم.." .

نعود للصورة التي تزعم المواقع العربية أنها تجمعهما وترجع إلى فبراير ١٩٢٣م في ميناء بورسعيد وبالبحث عنها في موقع مركز الأبحاث...

(Leo Baeck Institute) المعني بدراسة تاريخ اليهود الألمان وثقافتهم، لا يوجد فيها أي إشارة لمشرفة، وأنّها في الحقيقة تجمع أينشتاين وزوجته مع مستر موشيلي (Mouschli) وزوجته ومسز روزنبيرج .(Rosenberg) ومع ذلك سنفترض خطأ الموقع وأنّ صاحب الصورة والمجاور لأينشتاين هو "مشرفة" فهو لا يعدو في هذا الوقت أن يكون واحداً من مئات الأشخاص قدموا لمشاهدة العالم الشهير، وأنّ هذه الزيارة التي صادفت بورسعيد لو صحَ فيها لقاؤه بمشرفة لا تعدو أن تكون توقفاً عابراً وسريعاً في رحلة أينشتاين والتي تركزت على فلسطين كمحطة أساسية، حيث استقبله مندوبها السامي تحت الانتداب البريطاني "هربرت صموئيل" وزار تل أبيب، وهناك أثنى على جهود الكيان الصهيونيّ ووصفهم بالجدّ والمثابرة والعمل الهائل في قطاعات الزراعة والصناعة والاقتصاد والتربية، ولا ننسَ أنّ أينشتاين عُرِضَت عليه رئاسة إسرائيل بعد وفاة "حاييم وايزمان" في نوفمبر ١٩٥٢م، ورفضها لكبر سنه، وليس لأي سبب آخر..

(لاحظ أنّ القصة نفسها تقريباً حدثت حينما تداولت بعض صفحات الفيس بوك صورة لأينشتاين مع عالم الفيزياء العراقي "عبد الجبار عبد الله"، وتبيّن أنّ الصورة لأينشتاين مع خمسة من خريجي جامعة يشيفيا عام ١٩٥٢م، وليس من بينهم العالم العراقي وذلك بحسب موقع "الحرة" الأمريكي)..

هذا هو الشق الخاص ببواعث أينشتاين أما مشرفة فمن الطبيعي أن يكون من الساعين للقاء عالمٍ كهذا درس نظريته النسبية، فقد كان قد حصل على الدكتوراه لتوّه في العلوم من جامعة لندن كأوّل مصريّ يحصل على هذه المنزلة، ومازال يخطو خطواته الأولى للالتحاق بالجامعة المصرية، وهذه فرصة ثمينة له للتعرف على نجوم

زمنه عن كثب... إذًا فالصداقة بين الرجلين لا تعدو كونها نسجاً من الأسطورة التي دائماً تقترن بنظرتنا لعلمائنا ورفعهم لدرجات قد لا تكون حقيقية من أجل مداعبة أفئدة الناس واستثارة أحلامهم وبعث آمالهم.. للأسف أغلب من شطوا في علاقة أينشتاين ومشرفة وأنّ الأخير أسهم في أبحاث أينشتاين عن النسبية، فاتهم أن يجروا حسابات بسيطة كفيلة بأن ترد هذه المزاعم في مهدها، فالمعروف أنّ الدكتور "مشرفة" من مواليد ١٨٩٨م، وأينشتاين نشر النسبية الخاصة عام ١٩٠٥م، أي وعمر مشرفة سبع سنوات! كما نشر النسبية العامة عام ١٩١٦م أي وعمر "مشرفة" ثمانية عشر عاماً!! نخلص من ذلك أنّ "النسبية" صارت نظرية مستقرة في العلوم قبل نضوج "مشرفة"، فهل يعقل أن يكون هناك ثمّة تعاون بينهما أو أنّ "مشرفة" واحد من القلائل الذين فهموها عبر العالم؟

ثمّة نقطة أخيرة أنّ القارئ لأبحاث "مشرفة" الفيزيائية وهي ليست بالغزيرة، يلحظ أنّها تناقش في أطر عامة وليست حصرية النتائج أو فارقة الدلالات للحد الذي سيثير شهية أينشتاين فيرفع صاحبها لمصاف نصف العلم! كما أنّه لا يوجد علاقة بين "مشرفة" وأبحاث القنبلة الذرية حتّى يخطط الموساد لاغتياله وهي أسطورة أخرى وجب أن نتوقف عنها؛ لأنّها تجافي الحقيقة والمنطق معاً.. لكن هذا لا يمنع أنّ جهود "مشرفة" في النهوض بالجامعة المصرية ونشر العلوم بشكل مبسط بين المصريين كانت عظيمة ورائدة، كما أنّ أبحاثه تعد خطوات مشكورة في ضوء تواضع بيئة الأبحاث العلمية في مصر، ولو عدنا لأرشيف الصحافة المصرية بالتزامن مع وفاة عالمنا البارز ومنها مثلاً "المقتطف" عدد فبراير ١٩٥٠ م، وتحت عنوان "صفحة طويت.. علي مصطفى مشرفة باشا" لوديع فلسطين لا تجد من ضمن آثار ومآثر

الرجل أياً من هذه المزاعم شديدة المبالغة التي تنتشر اليوم على صفحات الفيس بوك..

من المفيد أيضاً أن نعرف أنّه ليس صحيحاً أنّ رواية "قنطرة الذي كفر" من تأليف "علي مصطفى مشرفة"، بل هي رواية غير مكتملة ألّفها شقيقه الدكتور "مصطفى مصطفى مشرفة" عن ثورة ١٩١٩ م، واسم الرواية نسبة لقنطرة في درب الجماميز كانت تصل لبيت أحد قادة الحملة الفرنسية وهو "كفاريللي" والذي أطلق عليه المصريون "اللي كفر" ومن هنا جاءت تسمية الرواية.

****

2-هل تجربة الشربتلي الصحفية التي أشرت لها في كتاب "هوامش على دفتر أحوال مصر" انتهت ولم يعد لها جذور مع التقدم الحالي؟!

بداية.. دعنا نتفق على أمرين:

أولاً: إنّ هذا المبحث سيكون تماماً كمبحث السرقات الأدبية في كتاب "نوستالجيا الواقع والأوهام" نلتزم فيه عدم التعليق والعرض المجرد للحوادث كما جاءت على ألسنة صناعها وشهودها، وأنّنا نحترم الجميع ونقدرهم وهذا المبحث من قبيل البحث العلمي ليس إلا..

ثانياً: حينما أطلقت وغيري على الشيخ محمد الشربتلي كونه رمزاً "للفبركة الصحفية" فنحن أمام شخص كان يكتب بالأجر في صحف صفراء "فيرد في بعضها على ما كتبه هو نفسه في الأخرى" ووصلت افتراءاته إلى حد أن نشر في صحيفته" النهج القويم " أنّ الشيخ "محمد عبده" مفتي الديار المصرية أنكر وحدانية الله في درسه بالأزهر، ولما استدعته النيابة وأمرت بحبسه حاول دفع التهمة عنه بأنّه سمع الخبر من الشيخ سليمان العبد، أحد كبار علماء الأزهر وهو ما نفاه الشيخ سليمان واعتذر عنه بأنّه يعتقد الكمال في الشيخ محمد عبده... وبالتالي فالشيخ الشربتلي نموذج أجمع عليه رموز عصره... أما النماذج التي سنستعرضها فمنها ما ينطوي على دليل ومنها ما يخلو من أدلة جازمة سوى الروايات...

- في عمود الكاتب الصحفي الكبير صلاح منتصر "نقش على ورق" في مجلة الشباب في العدد ٢٦٨ في نوفمبر ١٩٩٩م، تحدّث عن "مدرسة الفبركة" في الصحافة ومنها أنّ

أحد رؤساء تحرير الصحف المستقلة في مصر نسب للرئيس مبارك حديثاً لم يدلِ به إليه حيث جمع مجموعة من إجابات الرئيس في حوارات سابقة ووضع لها أسئلة والرئيس مبارك هو الذي كشف "الفضيحة" في لقاء مع الإعلاميين في "عيدهم.."ويسرد الكاتب الكبير واقعة شديدة الطرافة حدثت عام ١٩٦٦م، حيث أرسل مراسل جريدة الأهرام في مرسى مطروح "المرحوم جابر المجعاوي"، خبراً صغيراً عن عثور بدوي كان يستقل حماره في الصحراء على بقايا آثار جيش "قمبيز" المفقودة من آلاف السنين من جنود وخيول ومعدات. أسرع "ممدوح طه" رئيس قسم الأخبار في الأهرام لإبلاغ الأستاذ "محمد حسنين هيكل" رئيس التحرير وقتئذ والذي حجب الخبر وطلب من "ممدوح طه" إعداد بعثة من المحررين وبصحبتهم مصور للسفر إلى مرسى مطروح، وإذا لزم الأمر استئجار طائرة للوصول لمكان الكشف وتصوير كافة تفاصيله وكتابة تقريرٍ وافٍ عنه. كان من الطبيعي الاتصال بالمراسل للتنسيق معه، والذي ما إن بشّر بالبعثة حتّى راح صوته للحظات، ثمّ عاد معتذراً وقد أطلق ضحكة -اشتهرت عنه عند الفبركة- بأنّ عاصفة رملية قوية مثل التي واجهها قمبيز من آلاف السنين ابتلعت آثاره مرة أخرى، ولم يعُد ممكناً تحديد مكانها.. يواصل "صلاح منتصر" قصته المثيرة التي لم تنتهِ عند هذا الحد، ففي جلسة مع "جابر المجعاوي" على البحر في مرسى مطروح اعترف له أنّه اختلق هذه القصة من بدايتها، ولم يتوقع أن تثير اهتمام هيكل لهذه الدرجة..

-بعد وفاة الكاتب والمحاور الكبير "مفيد فوزي" في ٤ ديسمبر ٢٠٢٢ م، فتحت صحيفة "القبس" الكويتية أرشيفها عن خبر يعود إلى ٣٠ يوليو ١٩٧٥م، حيث تقدمت السيدة "غنيمة فهد المرزوق" صاحبة مجلة "أسرتي" الكويتية ورئيسة

تحريرها بشكوى لنقابة الصحافيين المصرية ضد "مفيد فوزي" متهمة إياه بالنصب والاحتيال، حيث زعم أنّه أجرى حواراً مع السيدة هدى عبد الناصر نشرته المجلة كموضوع الغلاف في العدد الصادر بتاريخ 24 مايو 1975 م، وتقاضى نظير ذلك مبلغاً طائلاً من المجلة. المفاجأة التي أزعجت المجلة بعد نشر الحوار هو رسالة من السيدة هدى عبد الناصر "أنّها لم تدلِ بأي حديث لا إلى مفيد فوزي ولا إلى سواه! وأنّه لم يتصل بها وأنّها لا تعرفه، وأنّ الحديث من ألفه إلى يائه مفبرك، وهو من بنات أفكار كاتبه، ومن خياله المحض ومن تصوراته وحدها".. لتنشب الأزمة بين المجلة والإعلامي الكبير...

-لكن تظلّ الواقعة الأكثر إثارة هي قيام صحيفة "الأهرام" المصرية البارزة في عام 2010 م، بفبركة صورة تحت عنوان "الطريق إلى شرم الشيخ" تجعل الرئيس الأسبق "محمد حسني مبارك" يبدو وكأنّه يتقدم عدداً من الزعماء الذين شاركوا في البيت الأبيض في عودة المفاوضات المباشرة بين الفلسطينيين والإسرائيليين... وبحسب الصورة الأصلية، فقد احتل الرئيس الأميركي "باراك أوباما" المقدمة وخلفه رئيس السلطة الفلسطينية "محمود عباس" ورئيس الوزراء الإسرائيلي "بنيامين نتنياهو" وملك الأردن "عبد الله الثاني" فيما حلّ في المؤخرة الرئيس مبارك الذي بدت عليه علامات التقدم في العمر بشكل كبير.. ومع تصاعد موجة الانتقادات للجريدة العريقة جاء تعقيبها أنّ الصورة "تعبيرية" عن "الموقف السياسي الدقيق لمكانة الرئيس مبارك وموقعه في القضية الفلسطينية، ودوره المتفرد في قيادتها"...

****

3-هل من المعقول أن يضع الملك فؤاد يده على أوقاف مخدومه خليل آغا كما ذكرت في كتابك "رواق القصص الرمضاني" وهل الملوك في حاجة لمثل هذا الفعل؟

الرغبة في الثراء الفاحش هو السبب... وهذا المثال غيضٌ من فيضٍ في تاريخ الأسرة العلوية الممتد مع الأوقاف ويعد "محمد علي باشا" مؤسس الأسرة العلوية وجد الملك فؤاد هو المحرك الفعليّ الأوّل للاستيلاء على أموال الأوقاف التي كانت تعرف بالرزق..

قبل "محمد علي باشا" كانت هناك عدة محاولات أثناء الحكم العثماني لمصر لبسط يد الباب العالي على أموال الأوقاف منها محاولة الوالي "إبراهيم باشا القبودان ("القبو دان" كلمة تركية تعني "آمر" أو "قبطان" السفينة ورئيسها)" عام ١٧٠٩م لكن علماء المذاهب الأربعة اعترضوا عليه واختصموه ورفعوا فتواهم للسلطان العثماني "أحمد خان الثالث" والذي أقرهم على ما هم عليه.. الأمر تكرر مرة أخرى، ولكن في هذه المرة من السلطان العثماني "محمود الأوّل" عام ١٧٣٥م، الذي أرسل إلى والي مصر "بكير باشا (أبو بكر)" بحجب أموال الأوقاف فاعترض الشيخ "سليمان المنصوري" بأنّ هذا يخالف ما جرت به العادة وتداوله الناس ورتبوه على خيرات ومساجد وأسبلة وبالتالي لا يجوز إبطاله وأرسل الشيخ "عبد الله الشبراوي (أبو محمد جمال الدين عبد الله بن محمد بن عامر بن شرف الدين الشبراوي الشافعي، وهو أوّل من ولي المشيخة من مشايخ المذهب الشافعي وله فتوى شهيرة من أنّ أهل الذمة لا يمنعون من دياناتهم وزياراتهم ومنها حج الأقباط لبيت المقدس)" شيخ الأزهر رسالة إلى السلطان مدللاً على أهمية هذه الرواتب في دعم الحركة العلمية ومحذراً من مغبة قطع الأرزاق وأثره في اضطراب أحوال الرعية، وما ينتج عن ذلك من "قبيح

الأفعال وسوء الأخلاق".. وفي حقبة الحملة الفرنسية أمر "نابليون بونابرت" في ١٦ سبتمبر ١٧٩٨م، بتسجيل الملكيات العامة والخاصة، ومنها أراضي الأوقاف نظير رسوم ٢٪ ومن يتوانَ عن التسجيل تصادر منه ممتلكاته، وبعدها بشهر تقريباً تصاعدت شكاوى الأهالي من استيلاء النصارى القبط والشوام على نظارات الأوقاف..

مع قدوم محمد علي باشا وسعيه نحو النهوض بمصر كان بحاجة شديدة للمال لتمويل مشروعاته لهذا وجه بصره نحو الأوقاف باعتبارها ثروة عقارية طائلة وينقل "الجبرتي" أن "الباشا" كان "لا يطيق الوقف" ويستخف به قائلاً: "إيش يعني وقف!"... بدأ "الباشا" بخطى دؤوبة للاستيلاء على الأوقاف وضمها لأملاك الدولة وحرمان المستفيدين منها وحريّ بنا أن ننقل وجهة نظر المشايخ تجاه سياسة محمد علي باشا وأفضل تعبير عنها ما جاء في تأريخ الإمام الشيخ "محمد عبده" عن هذه الفترة إذ يقول : "ما الذي صنع محمد علي؟ لم يستطع أن يحيي ولكن استطاع أن يميت، كان معظم قوة الجيش معه، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كلّ رأس من خصومه، ثمّ يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولاً وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه، وهكذا حتّى إذا سحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة، فلم يدع منها رأساً يستتر فيه ضمير (أنا)، واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهلين، وتكرر ذلك منه مراراً حتّى فسد بأس الأهالي، وزالت ملكة الشجاعة منهم، وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها، فلم يبقَ في البلاد رأساً يعرف نفسه حتّى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه..

أخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرى، كأنّه كان يحن لشبه فيه ورثه على أصله الكريم، حتّى انحط الكرام وساد اللئام، ولم يبقَ في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال، وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أي وجه فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطبيعية من رأي وعزيمة واستقلال نفس، ليصير البلاد المصرية جميعها إقطاعاً واحداً له ولأولاده على أثر إقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة" وعن قضية الأوقاف تحديداً يقول الإمام: "نعم: أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدلها بشيء من النقد يسمى فائض رزنامة لا يساوي جزءًا من الألف من إيراده. وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي له اليوم (ربيع الأول ١٣٢٠ = يونيو ١٩٠٢) لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة، وقرر له بدل ذلك ما يساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة".

وحتّى نكون منصفين فالأوقاف في ذلك الوقت وإن بدت تضمن قدراً كبيراً من الاستقلالية والكفاية المالية للمؤسسة الدينية في مصر يبقيها بمعزل عن الاحتياج لأولي الأمر، لكنّها في الحقيقة كانت ترزح تحت وطأة رصيد هائل من الفساد الذي مثله بعض النظار وبمعاونة بعض المشايخ، وكان لابد له من بترٍ... في عام ١٨٠٩م، فرض محمد علي باشا ضريبة على "الرزق أو أموال الأوقاف" وبدهاء شديد ربط ذلك بفحص حجج الأوقاف خلال أربعين يوماً، ورتّب لذلك شروطاً عسيرة يصعب اجتيازها منها "إذا مات السلطان أو عزل بطلت تواقيعه ومراسيمه، وكذلك نوابه ويحتاج تواقيع من نواب المتولي الجديد" ومنها أيضاً "اشتراط التأشير من قبل الإدارة العثمانية" التي أعقبت خروج الفرنسيين ومع عجز أصحاب الأوقاف والمستفيدين منها عن تلبية هذه الاشتراطات، أصبحت لقمة سائغة بين يدي الباشا الذي أطبق

يديه على كلّ أراضي البلاد بما فيها الزراعية والوقفية بحلول عام ١٨١٤م.. انتهج الباشا دعاية دينية لامتصاص غضبة الأهالي، وأنّ الهدف هو تمويل حروبه في الحجاز ضد الوهابيين، كما وعد بأن يعمر المساجد المتخربة.. في البداية جوبه الباشا بمعارضة شديدة من الزعامات الدينية والتي استطاع أن يشق صفوفها بدهاء ومكر شديدين (راجع تأملات بين العلم والدين والحضارة) ونفى الشيخ عمر مكرم إلى دمياط في ٩ أغسطس ١٨٠٩م، فأقام بها أربعة أعوام، ثمّ نقل إلى طنطا وتوفي عام ١٨٢٢م...كما خلع الشيخ محمد الدواخلي من نقابة الأشراف ونفاه إلى دسوق عام ١٨١٦م (يحكي الجبرتي أنّ الذي وقع لهذا الدواخلي إنما هو "قصاص وجزاء فعله في السيد عمر مكرم" فإنّه كان من أكبر الساعين عليه إلى أن عزلوه وأخرجوه من مصر والجزاء من جنس العمل كما قيل: "فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا")....

كما رفض الباشا التماس الشيخ "محمد الشنواني (محمد بن علي بن منصور الشنواني الشافعي الأزهري وقد تولى المشيخة بعد الشيخ الشرقاوي وكان زاهداً فيها فتهرب وغاب عن بيته وأمر الباشا الجند باحضاره وتوليته رغم معارضته الشديدة)" شيخ الأزهر كما أمر بضرب وطرد من أشاعوا أنّه "تاب عن الظلم "وأبر بنذره إن عاد من الحجاز منتصراً سيرد "الأرزاق" لأهلها.. واستتب له الأمر ووهنت معارضة المشايخ شيئاً فشيئاً حتّى ولت وتلاشت أو كما يقول الجبرتي: "وفي ظنّ الناس وغفلتهم أنّ في الإناء بقية، أو أنّهم يدفعون الرزية وما علموا أنّ البساط قد انطوى وكلّ قد ضلّ وأضلّ وغوى، ومال عن الصراط واتبع الهوى، وكلب الجور (يقصد محمد علي باشا) قد كشر عن أنيابه وعوى، ولم يجد له طارداً ولا معارضاً ولا معانداً".. هذا لا يمنع من الاعتراف أنّ "محمد علي" أسدى للأوقاف خدمة جليلة حينما أنشأ

ديوان الأوقاف عام ١٨٣٥م، ووضعت دفاتر للمرة الأولى لحصر الأوقاف وقيد أسمائها في سجلات، وأنشأ قلماً لمحاسبة نظار الأوقاف وعين عليه "حسين بك" من مفتشي الأقاليم الوسطى سابقاً.. وفي عام ١٨٤٦م، أوقف الباشا إنشاء أوقاف جديدة ودعم قراره بفتوى من الشيخ "محمد بن محمود الجزائري" مفتي السادة الحنفية بالإسكندرية بحق ولي الأمر في منع الناس من وقف أملاكهم وتحبيسها "سداً لذريعة أغراضهم الفاسدة" مستنداً لرأي "أبي حنيفة" في جواز الوقف دون لزومه لأنّه كان لا يرى للوقف أصلاً لعدم وروده مباشرة في كتاب الله... لكن قرار الباشا لم يجد آذاناً صاغية، واستمر الناس في وقف أملاكهم.. ألغى الوالي "عباس حلمي الأوّل" ديوان الأوقاف لعدم جدواه في وجهة نظره، كما أطلق يديه في أراضي الدولة يوزعها على أفراد الأسرة الحاكمة، وبحسب كتاب كبار الملاك والفلاحين في مصر ١٨٣٧-١٩٥٢م للدكتور رءوف عباس والدكتور عاصم الدسوقي، فقد وسّع الوالي "محمد سعيد باشا" من ثروته الزراعية حتّى بلغت حين وفاته ٣١١١٧ فدان، من أجود الأراضي الزراعية بوسائل مشروعة وغير مشروعة، فقد ضمّ مساحات واسعة من الأراضي البور، فضلاً عن ستة آلاف فدان من أراضي الفلاحين الذين عجزوا عن سداد ديونها بالبحيرة، كما أرغم بعض المتاخمين لأراضيه على التنازل عن أراضيهم لتداخلها مع أرضه مقابل أراضي بور خارجة عن الزمام، وحدث في عهده أن رفض أصحاب ٣٠٠ فدان من فلاحي المطاعنة بيع أراضيهم لعبد الحليم باشا بن محمد علي باشا، وكانت مجاورة لأبعديته فأمر بجلدهم حتّى نزل بعضهم عن ٨٩ فداناً، فيما أصرّ الباقي رغم الجلد على عدم البيع؛ فأحال مدير قنا أمرهم للوالي.. وهل الوالي بأعدل من شقيقه!

أما الخديوي إسماعيل ـوبحسب الكتاب المشار له آنفاًـ فقد اضطر عمه عبد الحليم باشا وشقيقه مصطفى فاضل على بيع دائرتمها ومساحتها ٧٥ ألف فدان، كما استصلح عدداً من الأراضي، وكان يوزعها على الفلاحين ويقيم لهم مساكنَ بها، وأعفاهم من مالها مدة خمس سنوات، وأمدهم بالحيوانات والتقاوي اللازمة للزراعة مع تقسيط التكاليف على خمس سنوات، وبعد مضي الخمس سنوات يبدأ في تحصيل الإيجار منهم...

تعاظمت أملاك "إسماعيل" حتّى شكلت دائرتين أولهما "الدائرة السنية" والتي بلغت مساحتها ٤٣٤٩٧٥ فدان، وثانيهما "الدائرة الخاصة" ومساحتها ٥٠ ألف فدان، وبلغت المساحة الإجمالية لأملاكه وأملاك عائلته ما يربو على مليون فدان أي ٢٠٪ من مساحة الأرض المنزرعة بمصر... وقد ذهب معظمها إلى ملكية الدولة وفاء للديون التي أربك بها "إسماعيل" الخزانة المصرية على مدار حكمه بموجب قانون التصفية الذي صدر قبل عزله عن العرش...

أما الملك فؤاد والذي بدأ حياته فقيراً ومديوناً حيث لم يرث عن والده الخديوي "إسماعيل" سوى ٨٠٠ فدان فقط، وبحسب كتاب (حكايات من دفتر الوطن) للأستاذ صلاح عيسى، فقد بلغت ثروته أربعة ملايين جنيه مصري علاوة على ٣٥ ألف فدان و٤٥ فدانًا من أراضي الأوقاف.. كما وضع يده على أملاك الأمير "أحمد سيف الدين" شقيق زوجته الأولى "شويكار أو *شيوه كار*" والذي حاول اغتياله (انظر حكايات من بحور التاريخ).

ومع نهم "فؤاد" كسابقيه من الأسرة الحاكمة في الثراء الفاحش، إلا أنّه عُرِفَ عنه الحرص الشديد لدرجة البخل، ويبدو أنّه تعلّم من دروس الماضي ومغبة إضاعة المال

في القمار؛ فانتهج نهجاً جديداً في حياته في ترشيد إنفاقه وتوجيهه نحو الاستثمار النافع، ويقال: إنّه نصح زوجته الملكة "نازلي" على شراء أسهم في شركة قناة السويس وعمل على توجيه الأثرياء من أمته على الشراء لمحاولة استعادة جزء من حصة مصر في قناة السويس، وكان قد باعها والده الخديوي إسماعيل مع تفاقم الديون في ٢٥ نوفمبر ١٨٧٥ م، إلى رئيس الوزراء البريطانى "بنيامين دزرائيلى" الذي حصل على قرض قدره ٤ ملايين جنيه إسترليني من بنك عائلة "روتشيلد" اليهودية من أجل شراء هذه الأسهم والتي كانت تقدر ب ٤٤٪ من أسهم القناة، ويقال: إنّ فؤاد عبر مشروعه هذا عاد بالنسبة لسابق عهدها ٤٤٪ بحسب تقديرات عام ١٩٥٦م وقت التأميم.

نأتي للملك "فاروق" والذي قُدّرت ثروته بحسب كتاب (فاروق وسقوط الملكية في مصر) للدكتورة لطيفة سالم ب٤٨ ألف فدان، عدا أراضي الأوقاف التي بلغت ٩٣ ألف فدان، وتميزت بالخصوبة، وشكلت خِمس أراضي مصر الزراعية...

وقد وضع "فاروق" يديه على وقف جده إسماعيل في ٤ أغسطس ١٩٤٨م، وبحسب كتاب (فاروق ملكا) لأحمد بهاء الدين فقد نشب نزاع بين وزير الأوقاف الشيخ "علي عبد الرازق" والقصر بسبب ذلك القرار، وقدم الشيخ استقالته احتجاجاً والتي لم يقبلها رئيس الوزراء "محمود فهمي النقراشي" وقتها وتم احتواء الموقف عبر تعهد من الخاصة الملكية بدفع ربع حصيلة الوقف لوزارة الأوقاف، وهو ما لم تلتزم به الخاصة سوى مرة واحدة دفعت فيها شيكاً بأربعين ألف جنيه، تمّت الدعاية لهم باعتبارهم منحة ملكية كريمة! وبعدها لم تدفع مليماً واحداً... تصوّر معي كلّ هذا الثراء والفلاح الذي يحمل العبء كلّه ويعاني المرض والجوع، تبلغ متوسط ملكيته

"نصف فدان" وهذا أقصى طموحاته إنْ علمنا أنّ ٣ ملايين فلاح من ٤ ملايين كانوا معدمين لا يملكون قيراطاً واحداً، وهذا ليس زعمي، بل مثبت في حلقة الدراسات الاجتماعية التي دارت في القاهرة لتناقش مسألة الفلاح وهي "فروع من فروع هيئة الأمم المتحدة " بحسب ما جاء عنها في العدد ٨٤٠ من مجلة آخر ساعة في ٢٩ نوفمبر ١٩٥٠ م، وتضم خبراء في شؤون الفلاح من جميع الدول العربية ومراقبين أمريكيين ومندوب هيئة الأمم السير "رفاييل سيلنتو" فيما يغيب الفلاح عن الجلسات... الطريف أنّ المجلة تعلّق على الجلسات بأنّ "محمد علي باشا" وفق إلى "ضمان الملكية" ولكنّه "لم يوزع الأرض توزيعاً عادلاً".. هذا تعقيب مجلة في عز العهد الملكي، وليس بعده، ثمّ يأتي من يزعم أنّ الرقابة على الصحف كانت في هذه الفترات!

****

4-أرسل لي صديقي "الجودجي" تعليقاً عمّا كتبته عن أزمة الصحة في مصر في كتابي "صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر" وأنّ جذورها تعود إلى الماضي أنّه يكفي أن ننظر إلى شكل المستشفيات قديماً واتساعها لراحة المرضى وكفى بذلك شاهداً وكفى به موروثاً، وراح يذكرني بجولات جمعتنا في بعض المراكز لأشباه عيادات كنا نمر عليها، وكان بعض أعضاء مجلس الشعب يتبرعون بمبانٍ للمؤسسات الصحية الحكومية؛ ليقام بها عيادات لخدمة أهالي دوائرهم مقابل تعيين بعضهم في وظائف بها، فحينما تزور واحدة من هذه الوحدات تجدها في أغلب الأوقات مغلقة، وإذا جاءها التفتيش أسرع موظف الأمن بإبلاغهم هاتفياً للحضور وأغلبهم يسكنون بجوار الوحدة، وفي غضون ثوانٍ معدودات يكونون قد حضروا والتزموا أماكنهم.. وهذه الوحدات كاريكاتيرية التكوين تضيق بموظفيها المعينين بالواسطة فما بالك المرضى؟! واختتم رسالته "ألا تحمد الله على نعمة الماضي وميراثه؟!"

إذًا تعالَ معي لهذه الرحلة عبر سراديب الماضي وأوراقه الصفراء.. في خطاب نادر نورده على سبيل الاستئناس من الدكتور "محمد فؤاد السيد" مدير مستشفى مبرة محمد علي الكبير بالمعادي "دار النقاهة والحوادث بالمعادي تحت الرعاية السامية لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم تليفون ٢٦٥" موجه إلى "حضرة صاحبة العصمة السيدة الفاضلة حرم بهي الدين بركات" في ٢ أكتوبر ١٩٤٦ م؛ يشرح فيه مشكلة مستشفاه من ضيق المكان الحالي الذي تشغله المستشفى، والحاجة لإنشاء قسم للأشعة ومعمل وقسم للولادة، وقسم للرجال وقسم للأطفال؛ موضحاً أنّ الطابقَ الثاني للمستشفى مؤلفٌ من "خمس غرف صغيرة" لا تتسع لمريضات المستشفى ولمبيت الحكيمة والتي تنام في حجرة العمليات! ولا للممرضات "التومرجيات" اللاتي يفترشن طرقات المستشفى مضيفاً أنّه "لا يوجد مكتب للمدير" وتعقد جلسات مجلس الإدارة في حجرة العمليات.. الأخطر في الخطاب أنّ

المستشفى بسبب ضيق المساحة مع الاضطراد في عدد المرضى، كانت تحجم عن استقبال مرضى الحوادث من الرجال والذين كان أهلهم يعانون الصعاب في الوصول للمستشفى عبر الدواب لعدم قدرتهم على استئجار سيارة خاصة!

الواضح أنّ المشكلة وجدت طريقها للحل، ولكنّه حلٌّ عقّدَ من المسألة أكثر، فبحسب خطاب آخر من الطبيب موجه أيضاً لزوجة بهي الدين بركات باشا، نورده على سبيل الاستئناس وهو يكشف أنّ "اللجنة العليا لمبرة محمد علي الكبير"، وافقت على شراء منزلٍ أكثر اتساعاً وهو منزل يقيم فيه "سعادة نجيب باشا سالم"، ولأسباب غير واضحة فالباشا يتمسك بالإقامة في المنزل، ويرفض تسليمه لإدارة المستشفى رغم "الحلول العديدة التي عرضت على سعادته".. الطريف في الخطاب الثاني أنّه اشتمل على مقارنة دقيقة بين المنزل الحالي للمستشفى (مجموع حجراته ثمانية)، والمنزل المشترى الذي يسكنه نجيب باشا سالم (مجموع الحجرات سبعة عشر)..

في ضوء الخطاب (لو صح) فنحن أمام ثلاث شخصيات تاريخية... الأولى: "هدية هانم" حرم "بهي الدين بركات باشا" وابنة "أحمد عفيفي باشا" *وابنة* شقيقة المرحوم "محمد محمود خليل بك" رئيس مجلس الشيوخ السابق (من مؤسسي جمعية محبي الفنون الجميلة مع الأمير يوسف كمال عام ١٩٢٤ م) والتي أسست بمعاونة الأميرة "عين الحياة رفعت" زوجة السلطان حسين كامل مجموعة "المرأة الجديدة" لأفعال الخير والمحسنين عام ١٩٠٨م، وألحقت بها عيادة طبية بالقاهرة، ثمّ مستشفى في ميدان عابدين.. لاحظ أنّ هذا التوجه النسائي المدعوم من الدولة في العهد الملكي – على كره- نحو توفير البنية الأساسية للمنظومة الصحية التي تتسع للفقراء كان عن وعي تام بخطورة ترك هذا الباب على مصراعيه دون حلول مما قد يؤدي للانفجار

يوماً، وهو ما عبّر عنه الدكتور "بهي الدين بركات باشا" (زوج هدية هانم) في مقال بعنوان "يجب أن نصلح حال الطبقات الصغيرة وإلا عرضنا البلاد لثورة اجتماعية" وقد أوجز الحلول في أمرين.. الأول: تغذية الفلاح تغذية كافية فكثير من أمراضه ناجمة عن سوء التغذية، لذا فهذا الحل مقدم حتّى على العلاج ومكافحة الأمراض..

الثاني: مكافحة الأمراض المتفشية في البلاد مثل البلهارسيا والأنكلستوما وغيرها والبالغ عدد المصابين بها سبعين أو ثمانين في المائة، وإنّ التماس الحل عبر توفير منظومة من المستشفيات غير كافٍ إن لم يتم اجتثاث الأسباب وداعياً في نهاية مقاله "لإقناع ذوي السلطان بوجوب الإسراع إلى العمل قبل أن تضيع الفرصة وقبل أن يستفحل الداء ويستعصي الدواء" وذلك بحسب العدد ٨٠٠ من مجلة المصور في ٩ فبراير ١٩٤٠ م. لكنّ الجليّ أنّ ذوي السلطان كانوا لازالوا يتحركون بخطى عرجاء للحاق بالهاوية فتجد "هدية هانم" مثلاً تبحث عن "٢٠ ألف جنيه" للمبرة فتستغل فرصة افتتاح مستوصف كفر الدوار ضمن نشاطات مبرة محمد علي وبحضور الأميرتين فوزية وفايزة شقيقتيّ الملك، وتجري مفاوضات مضنية على سلم المستوصف وفي فنائه وحجراته وعلى السرادق للحصول على المبلغ الموجه للنشاط الخيريّ، ووضعت "نجيب اسكندر باشا" في موقف حرج "فخ" بحسب وصف مجلة آخر ساعة في عددها ٧٨٥ في ٩ نوفمبر ١٩٤٩ م، اضطر معه للموافقة على أن يأتيه "نظيف بك " وكيل الوزارة بالشيك ليوقع عليه...

ومع مطلع الستينات اتسع نشاط المجموعة، وأصبح تحت رعايتها اثنا عشر مستشفى... وقد أشاد بها الرئيس "محمد أنور السادات" وأعمالها الخيرية قائلاً "نحن جميعاً تلاميذ هدية بركات.."

أما "نجيب سالم باشا" الذي ورد اسمه في الخطاب.. فلربما كان نفسه "محمد نجيب سالم باشا" ناظر الخاصة الملكية والذي تولى الوصاية على الأميرة فتحية بعد أزمة زواجها من "رياض غالي" موظف السفارة الذي تزوجها بالولايات المتحدة الأمريكية بمباركة الملكة "نازلي" مما دعا مجلس البلاط في ٣١ يوليو ١٩٥٠ م إلى الحكم ببطلان الزواج لعدم التكافؤ ونزع وصاية الملكة "نازلي" عن ابنتها...

الشخصية الثالثة: الطبيب صاحب الخطاب وللأسف لا أملك معلومات عنه.. لكن فكر معي عزيزي "الجودجي".. كم راتب هذا الطبيب الغيور على مهنته؟! أعلم أنّ الحياة ليست كلها مادة، ولكن بالمادة يحيا الإنسان والدنيا ماضيها وحاضرها أرقام!

تبعاً لتقرير مجلة الاثنين والدنيا العدد ٦٦٨ في ٣١ مارس ١٩٤٧ م حمل عنوان "مسكين الموظف.. القضية بشلن والكشف بقرشين" عن الرواتب، فغالبية أطباء المستشفيات الحكومية في الدرجة السادسة وقلتهم يصلون بعد نحو اثني عشر عاماً في الخدمة للدرجة الخامسة، وحينها تصل رواتبهم على الأكثر لثلاثين جنيهاً مع حساب "بدل العيادة".. وتعدد المجلة مهام الطبيب في المستشفى من تشخيص ووصف علاج ومتابعة، وإذا كان الطبيب يستقبل نحو خمسين مريضاً يومياً أي ٣٠٠ مريضاً أسبوعياً أي ١٣٥٠ مريضاً شهرياً، إذاً بحسبة بسيطة وضعتها المجلة فما يحصل عليه الطبيب بعد خمسة عشر عاماً في السلك الوظيفي عن مباشرة كلّ حالة هو "نصف فرنك" يتناوله الطبيب "جرعة واحدة يومياً ما بين الصباح حتّى بعد الظهر".. الحمد لله كم تناولنا هذه الجرعة ولا فرق في ذلك بين ماضٍ وحاضرٍ وربما مستقبل!

المشكلة أنّ حتّى ثقافة مكافحة العدوى بين جموع الناس تبدو في الماضي مذبذبة ومرتبطة بالدعاية السياسية، فأعجب ما رأيت في صحف الأرشيف المصريّ ما جاء في العدد ٨٢٩ من مجلة آخر ساعة في ١٣سبتمبر ١٩٥٠م، وحديث مع الأسطى "محمود" الحلاق الذي ينتظر من دولة النحاس باشا أن يبر بوعده في منع استيراد "ماكينات الحلاقة" والتي تزاحمه في رزقه مثلما تفعل "مصلحة الضرائب"..

وكما ذكرتني صديقي "الجودجي" بهذه القصة في سؤالك، فاسمح لي أن أذكرك بلقاء جمعنا بالقرب من مستشفى (أبو الريش الجامعي) للأطفال التي تأسست عام ١٩٢٨م بحي المنيرة، ويومها بعد أن انتهينا من شراء بعض الكواشف الطبية بالمنطقة، وأخذنا الفضول لمعرفة سرّ هذه التسمية، وسمعنا روايات شتى منها أنّها نسبة للقطب الصوفيّ العارف بالله "عطية بن عز الدين بن يحي بن محمود بن قرشلة بن أحمد بن على الوفا بن موسى بن يونس بن عبد الله الأصغر بن إدريس الأزهر بن إدريس الأكبر بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى" الملقب بأبي الريش، وينتهي نسبه إلى الإمام الحسن بن علي -كرم الله وجهه، وقد هاجر من الحجاز واستقرّ بمصر وكان له قدرة على ترويض الوحوش ومخاطبة الطيور، وكان يتخذ من ريشها فراشاً ولهذا سُمي "أبو الريش" وإنّ له ضريحاً ومسجداً بمدينة دمنهور بمحافظة البحيرة، وكان له كرامات في علاج المرضى ومما يروى عنه أنّه وفي يوم من الأيام أثناء خلوته للذكر وانقطاعه للعبادة، دخلت عليه "حدأة" وفي منقارها قطعة من القماش حمراء اللون على هيئة "صُرّة" بها "وريقات سميكة من الجلد الرقيق" وتركتها ومضت ولما قرأها وجد بها وصايا عشر ثمينة: الأولى (سبح كما تسبح صُحبتك) والثانية (الذكر بالنية أصدق الدرجات)، والثالثة (لا تبخل على مؤانسيك إنهم

يعلمونك)، والرابعة (اختر.. الأسماء كلّها ذكر ولذكر الله أكبر)، والخامسة (سيطببك أحباؤك فأعنهم) والسادسة (دموع المواجيد ذكر فاجتهد)، والسابعة (أقرضْ الآخر حبّاً فلا يقف ذكرك للمذكور)، والثامنة (التوريث في الدولة هبة... فقد وُهبت)، والتاسعة (كلّ المفاتيح أنت إن استقمت)، والعاشرة (محنتك أن يُصرّ الآخر على مساعدتك.. إنّه يشاركك الذكر... الملك لك يا صاحب الملك) (بوابة المصري اليوم ١٦-١١-٢٠١٨)..

لكنّ الرواية الأشهر عن سبب التسمية والتي سمعناها يومها والشقُ العلميّ فيها حقيقيّ بالمناسبة هو أنّ مصر قبل ثورة ١٩٥٢م كانت الأعلى عالمياً في معدلات وفيات الأطفال (راجع نوستالجيا الواقع والأوهام) وأنّ من ينجو منهم من هذا المصير الحالك كانوا يقيمون له موكباً واحتفالاً، ويلبسونه جلباباً أبيضَ، وعلى رأسه تاجٌ من الريش، وينشدون بجواره وقد أركبوه حماراً أبيضَ بالمقلوب "يا أبو الريش... إنشا لله تعيش". فهل حينما يعدم الطب في وطن يدعي أنّه ناهض عن إيجاد حلول للفقراء ويتجه الناس للخرافات بديلاً عنه.. هل في ذلك نعمة وميراث تركه الماضي يستحق منا اليوم الثناء؟

****

5-من كتاب "تأملات بين العلم والدين والحضارة" يتضح لي أنك من المعسكر المناهض لبطولة صلاح الدين الأيوبي وهو معسكر حديث.. لماذا لم نسمع بذلك في الماضي؟

الموضوع ليس وليد اليوم، ففي مقال حمل عنوان "صلاح الدين الأيوبي.. نظرة مختلفة للكاتب والمؤرخ اللبناني "حسن الأمين" في العدد ٤٤٢ في سبتمبر ١٩٩٥م من مجلة العربي الكويتية أحدث صدمة في الوسط الثقافي حينها إذ كانت واحدة من المرات القلائل التي يوضع فيها زعيم العروبة الأوحد في موازين التاريخ وتنال من قداسته سهام النقد.. يتلخص المقال في أنّ "صلاح الدين" كان يؤثر "سلطانه على مسائل الجهاد" وهو ما دفعه للإحجام عن غزو الفرنج ونور الدين محمود على قيد الحياة ورفضه معاونة الخليفة في بغداد "أحمد الناصر" على قتال الصليبيين خشية التبعية وسعياً للاستقلال بمملكة خاصة به وبأسرته..

هذا ليس انتقاصاً في وجهة نظري من "صلاح الدين" ولكنّه محاولة لوضعه في مساحته الطبيعية من التاريخ كرجل دولة وسياسة عاش في كنف الدولة الفاطمية الشيعية يحمي بيضتها ومارس الاغتيالات السياسية شأن غيره من رجال عصره وبنى ملكاً وراثياً له ولأسرته بدلاً من أن يقوّم اعوجاج نظام الحكم قبله ويقيمه على الشورى... استكمل جهود من قبله ولهم من الفضل ما لا ينكر وهناك من أكمل بعده وأعاد ما أضاعه بنوه... أما اعتباره زعيماً إسلامياً قلَّ أن يجود الزمان بمثله، كما يشيع البعض عنه ويراودهم في أحلامهم فهو أمر ليس في محله...

أنا لا أناهض بطولة صلاح الدين أبداً، ولكنّني أعترض على اعتباره فلتة من فلتات التاريخ، لأنّ ذلك ليس حقيقياً جملة وتفصيلاً... الغرب في وجهة نظري هو من ضخم هذا الرجل في عقول العرب في سنوات الاستعمار وجعلوه مضرباً للمثل.

لقد أراد الغرب من ذلك أن يظلّ العرب على إيمانهم أنّهم لا يقومون إلا بقومة رجل يقودهم ولا يتخلفون عن الركب إلا حينما يختفي هذا الشخص.. لقد أراد الغرب أن تبقى هذه الأمة في سباتها تحلم بالمخلص القادم والزمن القادم الذي يحمله فتركن للوهن وتصبح مطية للطامعين أبد الدهر... إنّ المخلص وهم.. الأمم لا تنهض إلا بتعاضد أبنائها وبناء قاعدة علمية وطيدة الأركان بأهداف حقيقة ومخلصة تخلق أجيالاً متعلمة يقظة تحمل آمال أمتهم على سواعدها... لن تنهض أمتنا من سباتها إلا بالعمل الجماعيّ والفكر الجماعيّ والحلم بمستقبل جامع لا تشوبه الفرقه ولا تنتقصه الأهواء... بناء القاعدة يكون عبر اجتماع علماء الأمة في شتى المجالات وإفساح المجال لهم ليقودوا الطريق وليضعوا الأهداف الخلاقة.. لقد سمعنا طويلاً عن مؤتمرات القادة، ولم نسمع يوماً عن مؤتمرات العلماء الحقيقين حول قضية ما أو لفهم إشكالية معينة... سمعنا طوال الوقت عن قادة ملهمون ولم نسمع يوماً في أمتنا عن الأخذ بأيدي علماء مبتكرون... أهذا عيب زماننا التي صار فيه علماء الأمة في الشتات أم عيب أنفسنا التي تحلم بالمخلص القادم، وتنفض أيديها عن واقع ومستقبل هم خارجه بإرادتهم الكاملة وعقولهم المغيبة بوهم كبير...

حينما نهض النبي صلى الله عليه وسلم بالأمة العربية بنى مجتمعاً أخلاقياً وأقام جماعة متماسكة تليق بدعوته وتعبر عنها لم يكن زعيمها الأوحد، بل كان الدين

هو قائدها ومنهجها ومرجعها الأول والأخير، لذا حينما مات النبيّ لم يذهب الإسلام معه، بل بقي أبد الدهر تلتف حوله الجموع ويستضيء بمنهجه البشر جميعاً.

خذْ من قصصهم عبرة تطهّر بها نفسك، ولا تأخذ سيرهم قدوة فالعاقل من ميز بين حق وباطل... والفريق الذي يحبذ الأشرف "خليل بن قلاوون" على "صلاح الدين" هل أخذ في حساباته ما فعله بأهل الذمة (راجع رواق القصص الرمضاني)؟! اقرأ "صلاح الدين" وتعلم دروس المعركة، لكن لا تسِرْ على خطاياه في الحكم والتوريث واقرأ الأشرف "خليل بن قلاوون" وتعلّم أنّ المسألة ليست حروباً خاطفة، بل تقوية الجبهة الداخلية بتلاحم مكوناتها أفضل في استقرار النصر وديمومة أثره وعدم انهيار الحكم.. اقرأ وكن أنت الأعقل ولا تحقق نصراً وتخسر في مقابله معارك عديدة تفتت عصب الأمة، وتنال من قوة الدولة على المدى القصير والبعيد..

****

6-استغربت أنّ الشيخ السادات والد "صفية" اعترض على زيجتها الأولى من الشيخ "علي يوسف" كما ذكرت في كتابك "على هامش التاريخ والأدب" بينما "سعد زغلول باشا" هو من اعترض إقبالها على الزواج في المرة الثانية من الممثل "زكي عكاشة" فأين كان والدها الشيخ السادات في هذا الوقت؟! ولماذا لم يعترض وشتان بين الزوجين؟!

ذلك أنّ والدها السيد "أحمد عبد الخالق السادات (الملقب بأبي الفتوحات)" كان قد لاقى ربه عام ١٩٠٦ م أي وهي لازالت على ذمة زوجها الأول الشيخ "علي يوسف" وعليه فهو لم يدرك الزيجة الثانية، وقد أعياني البحث عن تاريخ وفاته والذي لم تتطرق إليه أيٌّ من ترجماته، وقد عثرت عليه في حكم طعن عام ١٩٥٨م على دعوى استغرقت في المحاكم سنوات طويلة بدأت من "السيدة هدى عثمان بصفتها ناظرة على وقف "أبي الأنوار السادات" رفعت دعواها أمام محكمة مصر الابتدائية (الأهلية) بصحيفة معلنة بتاريخ ٢٦ من ديسمبر سنة ١٩٠٤ م ضد المرحوم السيد "أحمد عبد الخالق السادات" تطالبه فيها بتقديم حساب عما "اغتصبه" من ريع الوقف ابتداء من سنة ١٣٠١ هـ، وإلا فيلزم بمبلغ **84000** جنيه" وانتقلت الدعوى بعد ذلك إلى الورثة، ومن ثمّ ورثة الورثة، والحكم يكشف أيضاً أنّ تاريخ وفاة السيدة "صفية السادات" كان عام ١٩٤٩ م..

والسيد "أحمد عبد الخالق السادات" من مواليد القاهرة، ونشأ في كنف جده السيد "أحمد أبو الإقبال" شيخ السجادة الوفائية وقد أدخله والده المدرسة الأميرية وكان ناظرها "رفاعة باشا الطهطاوي" وهناك تعلم العربية والتركية والحساب والخط وبعدها التحق بالأزهر الشريف.. وبعد وفاة أبيه في رحلة الحج (ذكرني بجدي لأمي

رحمه الله الحاج عبد الفتاح أحمد زردق وقد مات في الحج أيضاً) صدر أمر الخديوي "إسماعيل" بتوليته مشيخة "السجادة الوفائية" كما تقلّد مناصب عدة منها: عضو في مجلس الأحكام ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية كما حصل على عدة تكريمات منها النيشان المجيدي من الباب العالي ونيشان من ملك "اسوج ونروج (السويد والنرويج حالياً)" لاستضافته وإكرامه لولي عهد المملكة وقرينته عند زيارتهما للقاهرة، وكذلك نيشان "شيرخورشيد" من الدرجة الأولى من شاه إيران.. وهذا بحسب ما جاء في سيرته بكتاب "شعائر العرفان في ألواح الكتمان" لقطب الأقطاب أبي الأنور محمد بن محمد وفا...

بحسب هوامش كتاب "النثر الفني في القرن الرابع" للدكتور "زكي مبارك" فقد كان "السيد أحمد عبد الخالق السادات يكني مريديه في ليلة من ليالي رمضان في غرفة خاصة تسمى بهذا « أم الأفراح » وكان المريدون يفرحون بكناهم أبلغ الفرح، وهو تقليد يدل على أنّ الكنية كان لها في ذلك البيت معنى من معاني التشريف"... ولابنة الشيخ الجليل "صفية" قصة شهيرة مع الشيخ "علي يوسف" صاحب المؤيد استعرضناها بإسهاب في كتاب "على هامش التاريخ والأدب" وقد وردني هذا السؤال الطريف تعليقاً على هذه الحادثة، واعتقد أنّ المجال كان متاحاً هنا للبحث عن إجابته..

بالتأكيد تظنّ بي عزيزي القارئ أنّي غلبني السهو في كتابة التواريخ الخاصة بالقضية.. فهل من المعقول أن تبدأ القضية في ١٩٠٤م وتستمر حتّى ١٩٥٨م؟!! لا تندهش عزيزي القارئ من طول أمد التقاضي في مصر، فالعديد من القضايا خاصة المواريث والنسب قد تمتد لربع قرن وأكثر وتعالوا نستعرض مثالاً على ذلك من

مجلة الاثنين والدنيا العدد ٦٦٨ في ٣١ مارس ١٩٤٧م فتحت عنوان "قضية مزمنة!" تستعرض المجلة أنّ "أحد الأثرياء" قد توفي عن عزبة مساحتها ١٢٠ فدان بإحدى بلاد الوجه البحري، وكان له زوجتان الأولى "مصرية من أصل تركي" وله منها أربعة أولاد يتعلمون بالخارج وخمس بنات لهن عدة أبناء وبنات، أما الزوجة الثانية فكانت "فرنسية" تقيم بفرنسا، وكان زواجه بها "مدنياً سرياً" وأنجب منها ثلاث بنات بقين مع أمهن.. رفضت الزوجة "المصرية" أن تشاركها "الفرنسية" وبناتها تركة "الزوج" ورفعت دعوى ببطلان زواج الأخيرة وعدم ثبوت بنوة بناتها من "المورث" واستمر نظر القضية خمسة وعشرين عاماً أي ربع قرن من الزمان ومات من الورثة نحو عشرين شخصاً وبحسب صحيفة "البلاغ" فقد جاء حكم محكمة الاستئناف الأخير في صالح وراثة الزوجة "الفرنسية" وبناتها، حيث قضت بثبوت وراثة الزوجتين وذرية المورث منهما على السواء..

****

7-لاحظت أن كل إصدار ورقي لك يقابله إصدار إلكتروني يحمل تذييل " في عيون الصحافة والإعلام العربي" لماذا؟

كما ذكرت في كتابي"على مقهى الأربعين" لقد عمدت إلى تخليد ما أظنه إرثاً ثقافياً خاصاً بي فجمعت ما يتعلق بكل كتاب كلاً على حدة من مقالات تناولت أجزاء منه أو حوارات تحدثت عنه أو قراءات تناولته في شتى الصحف المصرية والعربية الورقية والإلكترونية لتكون دائماً قريبة من متناول القارئ المهتم بموضوعات كتبي.. كما لا يخفى عنكم أنّ هذا اللون من الكتب الدعائية هي شكل جديد من صور الترويج لمحتوى الكتاب والاطلاع على محتواه قبل المغامرة بشرائه.. وشراء الكتب في واقعنا الحالي مع ارتفاع أسعارها هي بالتأكيد مغامرة شاقة على النفس وعلى الجيب أيضاً.. كما أنّ إتاحة أجزاء من كتبي الورقية تمنح فرصة للباحثين عن معلومات أو أسئلة في موضوعات تهمهم للوصول إلى إجابات أتمنى أن تكون شافية ووافية بين جنبات كتبي.. علاوة أنّه يخدمني أيضاً في سهولة العودة إلى أرشيفي بشكل أبسط وأوفر في الوقت من البحث بين مئات الصور على الهاتف أو اللاب توب... وبالمناسبة يشرفني أيضاً متابعة الحوارات الإذاعية والتليفزيونية العديدة على شبكة الإنترنت ففيها الكثير من المعلومات والقصص التي تشتمل عليها كتبي بإسهاب وبأسلوب شيق ويسير...

****

8-لقد أصابني دوار الحركة (يمكن الرجوع لتفاصيل عنه في كتاب تأملات بين العلم والدين والحضارة) كلما وقعت عيناي على عبارة" على سبيل الاستئناس التي تستخدمها بجوار ما أسميته الأوراق التاريخية وأنكرت عليه الارتفاع لدرجة الوثيقة... أوافقك القول.. لكن أغلب الكتب الآن تعجّ بالحكايات بسند وبدون.. نصيحتي لك لا تكن حنبلياً؟!

بداية المذهب الحنبلي ليس متشدداً كما يشاع، بل كان الأكثر تيسيراً في كثير من المسائل أتدري أنّ الحلفان بالنبيّ والذي ينتشر على ألسنة المصريين مجاز لديه والحنث فيه عليه كفارة، وأنّ قضية إخراج زكاة الفطر نقداً وهي القضية التي ترافق المصريين كلّ عيد قد أجازها المذهب الحنبلي..

نعود لجوهر السؤال واستعمال كلمة الاستئناس للتفرقة بين الورقة التاريخية والوثيقة وهذا أمر مهم لا يدرك عظم فارقه إلا باحث التاريخ فالكبار وقعوا في هذا الفخ قبلنا أفنحن ننجو منه بسهولة؟!

تصور أنّ الدكتور "محمد حسين هيكل" الأديب ورئيس حزب الأحرار الدستوريين ورئيس مجلس الشيوخ يدس عليه وثيقتين مزورتين... الأولى خطاب أرسله النحاس إلى المفوضية الروسية بالقلم الرصاص والثانية تعضد الأولى ولكنها مكتوبة بخط "محمود بك شوقي" ابن شقيقة "النحاس باشا" وسكرتير عام مجلس الوزراء.. والورقتان تحملان تصريحاً خطيراً للنحاس من "أنّه قليل الرجاء في الاتفاق مع الإنجليز، وأنّه متى تحقق من إخفاق المحادثات معهم تعاون مع السوفييت، ويشكر فيه المفوضية الروسية على المعاونة المادية التي قدمتها للوفد، أقوى هيئة شعبية في البلاد"... فرصة ثمينة لأعداء النحاس ولكن كيف يمكن استخدامها؟!

اتفق "هيكل" مع "أحمد على علوبة باشا" وزير العدل السابق على أن يذهب الأخير بالورقتين لحسن باشا يوسف رئيس الديوان الملكي بالنيابة والذي قام "بمضاهاة توقيع النحاس باشا عليها على أوراق عنده فإذا المطابقة بين التوقيعين تامة ولهذا رأي رئيس الديوان بالنيابة من واجبه أن يحيط جلالة الملك علماً بالأمر؛ ليتخذ الإجراء الذي يراه"... لكن سرعان ما اتصل "حسن باشا" بعلوبة باشا بعد أن تحقق من أنّ الخط المنسوب إلى "محمود بك شوقي" في الوثيقة الثانية "ليس خطه" مما آثار شكوكه حول الوثيقتين فأعادهما مرة أخرى لعلوبة باشا...

تقدّم "النحاس" والأستاذ "إبراهيم فرج" وزير البلديات ببلاغ للنائب العام "عبد الرحيم بك غنيم" واتضح من التحقيقات أنّ الوثائق المزورة دسها "محمد سليمان هجرس" كان يشتغل قبلاً في المخابرات السرية بالمخابرات الحربية وحصل على خمسين جنيهاً من" أحمد علي علوبة باشا" كتشجيع له، وبحسب التحقيقات مع "هجرس" فالذي سلّمه الوثيقتين لم يكن موظفاً بالمفوضية الروسية، بل كان موظفاً بالسكة الحديدية المصرية اسمه "عبد العزيز جاد الحق" و"أنّ الأخير يتصل بالمفوضية الروسية عن طريق موظفين ثلاثة منهم فتاتان" وبتفتيش منازل "جاد الحق" حيث كان متزوجاً بأكثر من واحدة اتضح احترافه للتزوير، وقد أوردت القصة اعتماداً على مذكرات الدكتور هيكل..

تصوّر هذا في زمن الكبار! فما بالك بأطنان الأوراق التاريخية على الأرصفة بلا ضابط أو رابط؟! في إحدى المرات كنت التحقت بالعمل في القاهرة لدى شركة أبحاث وكنت فرحاً بأوّل مرتب حصلت عليه، وفي طريقي مررت على أحد باعة العملة واشتريت منه ريال (٢٠ قرش) السلطان حسين كامل بكل الراتب وأنا

فرح ولم يساورني الشك في جودة العملة التي حصلت عليها ووضعتها في حافظة وبعد سنوات وكنت في إجازة لمصر، أخرجتها مصادفة؛ فوجدت المعدن قد تغيّر بشكلٍ غريبٍ فرفعتها على إحدى جروبات العملة فتكشّف لي زيفها وأنّها مقلدة وكما يقولون في المثل "ما يقع إلا الشاطر"..

****

9- في كتاب "حواديت المحروسة" تحدثت عن جامع المبدول أو المبدولي ومكانه الأوّل في حارة "الزير المعلق" وكذلك في صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر عن "الحوض المرصود" عند حديثك عن البغاء وكذلك "العتبة الخضراء" في هوامش على دفتر أحوال مصر فما أصل هذه التسميات ويا حبذا لو الإجابات من خلال أرشيف الصحافة المصرية؟

بحسب مجلة الدنيا المصورة في ٥ فبراير ١٩٣٠ م، فأصل التسمية هو "الوزير المعلق" حيث حدث أنّ وزيراً أغضب أحد الولاة، فأقسم أن يعلّقه على باب داره حتّى يموت وتأكل من لحمه العقبان، ونفّذ الوالي الطاغية وعيده ولبث الوزير معلقاً إلى أن تشفع له الوزير الذي خلفه... مات الوالي وحتّى يمحو الوزير الجديد ذكرى ميتة سلفه الشنيعة من نفوس الناس لجأ لحيلة طريفة..

كان التفتيش على " الأزيار" من مهام المحتسب حيث يوضع على كلّ بيت "زيراً واحداً" بشكل إجباريّ؛ ليستخدم في إطفاء الحرائق وعلى صاحبه أن يتعهده بالملء وألا ينقص عن قدر معين... أمر الوزير أن يوضع تحت كلّ زير إناءً نظيفاً لشرب الكلاب وتحت ستار تعليم الناس النظام الجديد، أمر بوضع زير هائل الحجم وعلقه في موضع الوزير المعلق بشكل يلفت الأنظار فنسي الناس الوزير المعلق وعلق بأذهانهم الزير المعلق ومن هنا جاءت التسمية....

وقيل إنّ التسمية مرتبطة بعم "الزرزور" الرجل التركي الذي كان يتحكم في توزيع المياه على العمال أثناء بناء قصر عابدين ومن يود الشرب من "الزلعة" اليمين أحاله للشمال والعكس ومن يظن أنّه تجاوز حقه في الشرب وأنكر جعله يشرب قسطاً يسيراً من كلا "الزلعتين" ثمّ شيّد بناءً من الطين وعلّق في أعلاه "زيراً" وفي أسفله

مصلاة وزروعاً، وجعل للشرب شروطاً منها الصلاة أولاً في المصلى، ثمّ الصعود للزير للشرب..

أما "الحوض المرصود" الذي سميت على اسمه أحد أشهر مستشفيات الأمراض الجلدية في القاهرة، فقد اكتشفه علماء الحملة الفرنسية وكان حجراً من الجرانيت الأسود مكعب الشكل طوله متر وعرضه متر، وارتفاعه متر ومجوفاً على شكل حوض وعليه نقوش بالكتابات الهيروغليفية ويرجع لأحد النبلاء من الأسرة السادسة والعشرين واسمه هابمين (بوابة الشرق الأوسط ٢٠٢٢م).. وقد قام أحد بكوات المماليك بوضعه أمام جامع "سنجر الجاولي" في حي السيدة زينب بالقاهرة واستخدمه الأهالي في سقاية المياه للمارة كما ظنوه "رصداً" أي "سحراً" وأنّه يشفي من أمراض العشق والفراق، فأطلق عليه الفرنسيون "ينبوع العشق" كما يورد المستشرق الإنجليزي "إدوارد وليم لين" خرافة أخرى ارتبطت بهذا التابوت من أنّ الجنّ يتخذ شكل الإنس يوم الاحتفال بذكرى عاشوراء عند الحوض ومن يمر بهم ويشتري شيئاً من الفاكهة والكعك أو الخبز سرعان ما يتحول مشتراه إلى ذهب.. حاول الفرنسيون إرساله لفرنسا، لكنّ هزيمتهم أمام *الإنجليز* حالت دون ذلك ليستقر به المقام في المتحف البريطاني بلندن...

نأتي للعتبة الخضراء وقصة تسميتها أنّها كانت باب العاصمة القديمة ووصفها بالخضراء من تسميات الترك، أما المصريون فكانوا يسمونها العتبة "الزرقاء" لأنّ اللون الأزرق كان أحب الألوان للفلاحين "أصحاب الجلاليب الزرقاء كما كان يطلق عليهم اللورد كرومر" كما أنّها لون السماء، فلما دخل الترك مصر لم يعجبهم اللون "الأزرق" لأنّه يثير التشاؤم لديهم واستحبوا "الأخضر" عليه..

وقيل السبب في تسميتها يعود للوالي "عباس حلمي الأول" الذي اشترى قصراً أثرياً يطلّ على منطقة الأزبكية (سميت نسبة للأتابك أزبك بن طخط أول من سكن هذه البركة) لتقيم به والدته "*بامبا أو* بمبه قادين ويعنى المرأة الوردية" عام ١٨٥٠ م، وكان للقصر "عتبة زرقاء" تعود لابن المالك الأوّل للقصر "الحاج قاسم" بن الحاج محمد الدارة الشرايبي شاه (صاحب جامع الشرايبي بالمنطقة) وقد سمي الميدان الكائن فيه القصر باسمها "العتبة الزرقاء" واستمرت على حالها مع سلسال الملكيات المتعاقب على القصر الذي جاء على النحو التالي: (الأمير رضوان كتخدا الجلفى "أنشأ باب العزب بالقلعة. راجع مذبحة القلعة في كتاب تأملات بين العلم والدين والحضارة" - الأمير "محمد بك أبو الدهب" غدر بسيده علي بك الكبير. راجع كتاب نوستالجيا الواقع والأوهام- والي مصر "طاهر باشا الكبير الأرنؤطي" عجز عن دفع رواتب الجند الإنكشاريين فقتلوه. راجع حكايات من بحور التاريخ "-الأمير أحمد طاهر ناظر ديوان الجمارك والذي توفي بالاسكندرية)، ولما آل القصر للوالي "عباس حلمي الأوّل" كما تقدم بالشراء من ورثة الأمير "أحمد طاهر" أمر بتغيير لون العتبة من اللون "الأزرق" والذي كان يتشاءم منه للون "الأخضر" ومع تغير اللون تغير بالتبعية اسم الميدان أيضاً...

السؤال الذي كثيراً ما راودني وهو من أطلق على الشوارع في مصر هذه التسميات؟ ولقد وجدت ضالتي في مجلة الدنيا المصورة في عددها في ٥ فبراير ١٩٣٠م، حيث تكشف المجلة عن أنّ أوّل من اضطلع بتسمية شوارع مصر هو صاحب العزّة "مصطفى بك منير" أدهم السكرتير العامّ لمصلحة التنظيم المصريّة وأوّل موظف بمصلحة التنظيم توكل له هذه المهمة وحده، ثمّ تكونت لجنة لهذا الغرض كان هو

أحد أعضائها وله كتاب في عدة مجلدات عن القاهرة وشوارعها وأسباب تسميتها وقد رافق الأمير "سعود بن عبد العزيز" في رحلته لمصر إثر حادثة المحمل الشهيرة عام ١٩٢٦م (تحدثنا عنها في كتاب تاريخ "حائر بين بان وآن") وتضمنت الرحلة لقاءً بالزعيم "سعد باشا زغلول" وإجراء عملية جراحية للأمير في عينيه حيث كان يعاني من صعوبة في الرؤية وحساسية بهما، قام بها طبيب العيون البارز "سالم بك الهنداوي" الذي كان يشغل منصب مدير مستشفى قلاوون لأمراض الرمد والعيون "البيمارستان المنصوري" منذ عام ١٩١٨ م (تحدثنا عنه في كتاب حكايات من بحور التاريخ) وسبق أن أجرى جراحة للملك "عبد العزيز آل سعود" أيضاً.

****

10- استعرضت أمثلة عدة من أدب الرسائل في الماضي عبر كتابك "هوامش على دفتر أحوال مصر" فهل صحيح أنّ قدرات المصريين اللغوية في الماضي كانت أفضل وأبرز بالمقارنة بوضعنا الآن؟

الميزة في الماضي أنّه كان هناك اهتمام بطريقة كتابة الرسائل، فهي الوسيلة التي يتم بها أغلب المعاملات سواء في العمل أو على صعيد العلاقات الاجتماعية، لذلك كان هناك العديد من الكتب التي تفرد لهذه الغاية والتدريب عليها وتحمل نماذجاً جاهزة للاسترشاد بها عند الكتابة لأي غرض وأبيات شعرية تدغدغ العاطفة إن كانت الرسائل بين المحبين والعشاق..

نختار من الماضي مثالين:

المثال الأول: كتاب "أبدع الوسائل المفيدة في إنشاء الرسائل الجديدة.. طبع المطبعة اليوسفية شارع محمد علي بأوّل شارع الكتبخانة الخديوية.. تطلب من المكتبة الملكية بشارع الصنادقية بجوار الأزهر الشريف".. ونستعرض نماذجاً منه، فمثلاً ما يكتب في صدر الخطاب" من التحية ورد السلام: سلامي عليكم كلما طلعت شمس.. سلام محبّ لم يزل حافظَ العهد" وفي خطاب من صديق لصديقه "يعاتبه فيه انقطاع مراسلاته" يستعين بهذا البيت: "فبادر اعتذر يا خلّ أولى.. فعذر الحبّ يمحو سيئاته.."

المثال الثاني: أبدع الأساليب في إنشاء الرسائل والمكاتيب لعبد الباسط الإنسي صاحب مطبعة وجريدة الإقبال في بيروت وهي صحيفة بيروتية عُثمانيّة، ثُمّ لُبنانيّة كانت تصدر باللغة العربية في الفترة من ١٩٠٢ م وحتّى ١٩٣٤م..

ومنه مثال لعريضة "بطلب إحسان": "مولاي الوزير والمولى الخطير صاحب الدولة أعزه الله.. بعد تقبيل الأيادي الطاهرة (صيغة مذلة) وتردد ذكركم بالمحامد

الفاخرة.. فقد اتفقت القلوب على الثناء عليكم، وأجمعت الألسنة على حمدكم وشكركم.. ولذا أتجاسر برفع عريضتي إلى أعتابكم السامية راجياً شمولي بإحساناتكم الوافية.."

في زمني وأنا الآن في الأربعين من العمر، كانت كتب التعبير منتشرة بكثرة وتعطي قطعاً إنشائية جاهزة أو مقدمات وخواتيم تصلح لأي موضوع تعبير بالامتحان، وكان معلم اللغة العربية الذكي الكيّس الفطن من يلحظ ضعف اللغة العربية عند طلابه وما أكثرهم عبر الانتباه للمتن في المنتصف بين المقدمة والخاتمة المحفوظتين فالمتن الأوسط حتماً سيكون من إبداع الطالب أو على الأقل جزء منه... أما الآن ومع عصر الإنترنت فالأمر تغير وتحولت الرسائل إلى إيميلات على البريد الإلكتروني أو عبر "الواتس آب" تخلو من أيّ حسٍ فنيٍّ أو أدبيٍّ، ويأتي محتواها جافاً وسريعاً ومقتضباً لا يستلزم الإطراءات والمقدمات الجزلة والخواتيم الأنيقة، إنما يدلف لصلب الموضوع بأيّ طريقة ودون مراعاة للحس الأدبيّ، وحتّى الحبّ أصبح برسائل صوتية وفيديوهات وتبادل الأغاني والصور... إن كانت الإهداءات بكروت الصور عادة قديمة إلا أنّها كانت سنة اجتماعية لطيفة وأنيقة، فتجد المرء في أيّ بلد يزوره يرسل لأسرته "كروت" بها مناظر طبيعية لأماكن زياراته أو صور فوتوغرافية له من هناك بها عبارات من الحنين والتقدير لأسرته...

في جيلي كان هناك قيمة لأشياء كثيرة، فقدت بريقها بمضي الوقت مثل شراء كروت المناظر الطبيعية وتجميعها وهواية جمع الطوابع البريدية، والعملات المعدنية من بلدان وأزمنة شتى ومبادلتها، ومع بزوغ نجم المجلات والصحف في العالم العربي كانت هواية المراسلة عبر العالم...

11- في كتاب "تاريخ حائر بين بان وآن" تحدثت عن الرحلة العلمية لمجموعة من أطباء وزارة الصحة المصرية لمستشفيات الولايات المتحدة الأمريكية ومشروع "آرثر سيسيل ألبورت" مع الدكتور "عزمي باشا" للاستعانة بتمريض نسائي وتدريبه وتأهيله رغم كلّ المعوقات التي صادفتهما.. لقد استعرضت الرحلة والمشروع من منطلق الجودة الطبية، وأنا كزميل لك في المجال نفسه، أسألك عن مخرجات (outcome) هذه التجربة هل أتت ثمارها؟!

سأرد عليك من صحيفة تمثل تجربة صحفية فريدة تعكس بدايات العلاقات المصرية الأمريكية في مصر وهي صحيفة "الصداقة" والتي اتخذت شكلاً مختلفاً ومميزاً عن الصحف المصرية في ذلك الوقت والتي دائماً ما يعتلي الصفحة الأولى منها الشعار وتحته معلومات العدد والمؤسس ورئيس التحرير أما "الصداقة" فحملت شعاريّ تمثال نهضة مصر وتمثال الحرية، ويفصلهما ثلاث دوائر متداخلة ولا تحمل الصفحة الأولى بها أي معلومات عنها فيما تحتوي صفحاتها الداخلية على مربع للتعريف بها ورئيس التحرير المسؤول "عبد القادر حمزة" وأنّها "صحيفة أسبوعية يصدرها مكتب الولايات المتحدة للاستعلامات لتعزيز التفاهم الدولي. الآراء التي ترد على لسان الكتاب لا تعبر بالضرورة عن الرأي الرسمي للحكومة الأميركية... جميع المراسلات والتعليقات والاقتراحات ترسل إلى: «الصداقة ٦ شارع الشيخ بركات - جاردن سيتي بالقاهرة»."... العدد الذي نحن بصدده يعود إلى عام ١٩٥٣م ويحمل خطأ طريفاً وهو كتابة التاريخ بالخطأ "١٩٣٥م" (راجع كتاب هوامش على دفتر أحوال مصر للمزيد حول أخطاء صحف زمان).. تضمن العدد خبر تخريج الدفعة الأولى من حاملات دبلوم التمريض الراقي من مدرسة التمريض والولادة والتدليك بالإسكندرية والذي تشرف عليه كلية الطب ويتضمن برنامجاً دراسياً من

العلوم الطبية باللغة العربية لمدة أربع سنوات أعده أطباء مصريون.. كان افتتاح المدرسة في شهر أكتوبر ١٩٤٩ م، لتلتحق به طالبات التعليم الثانوي (سن ١٥-٢٠ سنة) وكانت رئيسة المدرسة هي السيدة "سعاد حسين حسن" التي كانت تشغل وظيفة حكيمة في التفتيش الطبيّ بوزارة المعارف، ثمّ مشرفة صحية اجتماعية، ثمّ ناظرة مدرسة الزائرات الصحيات وأخيراً هذه المدرسة... إذاً نحن أمام واحد من مخرجات التجربة يا صديقي العزيز وتخريج جيل من التمريض النسائي المصري وطبقاً للصحيفة، فقد أبدى الدكتور "محمد طلعت" عميد الكلية تفاؤلاً بإحلال الحكيمات المصريات الجديدات محل التمريض الأجنبي، كما اعتمد ١٥٠٠ جنيه لشراء أتوبيس لنقل الطالبات لمستشفيات المدينة...

الواضح أنّ توصيات "ألبورت" التي أشرت لها في كتاب "تاريخ حائر بين بان وآن" من ضرورة التدريب بواسطة ممرضات إنجليز وأمريكان، قد أخذت بعين الاعتبار - وإن لم يشر إليه- ففي فبراير ١٩٥١م، زارت المدرسة مس "إلي ماجنوسن" مستشارة التمريض في الهيئة الصحية العالمية، وأوصت بإيفاد رئيسة المدرسة في بعثة دراسية للولايات المتحدة الأمريكية، لكن عوضاً عن ذلك أوفدت مؤسسة "فولبرايت" خبيرة التمريض "مس أوديجارد" للالتحاق بالمدرسة لمدة تسعة أشهر بداية من أكتوبر ١٩٥٢م، وظلّت على اتصال دائم باللجنة العليا بالمدرسة وبمدير الجامعة وعميد كلية الطب... علامات نجاح تبشر بالخير وإشراف دولي مستمر قبل وبعد الثورة، ولكن لماذا جاء الإخفاق بعد ذلك؟ هذا له قصة طويلة قد نرويها بعد ذلك باستفاضة في ضوء أرشيف الصحافة المصرية...

12-تحدثت في كتاب "هوامش على دفتر أحوال مصر" عن قضية "أحمد أبو الذهب" قاتل النساء.. هل يمكنك أن تمدنا ببعض التفاصيل حول هذه القضية تحديداً من خلال أرشيف الصحافة المصرية؟

الصراحة يستحق "أحمد حلمي أبو الذهب " بشاربه المفتول وملامحه الغليظة وحدة حاجبيه لقب "سفاح النساء" أو "لاندرو" المصري (انظر كتاب نزهة الألباء في مطارحات القراء للمزيد عنه).. بدأ حياته كرجل بوليس لكن الطمع دفعه للتحول نحو الجريمة والسير على خطى (لاندرو) في اصطياد النساء وسرقة ما لديهن من جواهر وحليّ، ولكن وبحكم انتشار البغاء في البيئة المصرية في هذه الآونة، فقد كانت "المومسات" هدفاً أسهل لأبي الذهب في الوصول إليهن.

أعتقد أنّ حيلة أبي الذهب للهروب أثناء محاكمته كانت ملهمة لكثير من أفلام السينما بعد ذلك وربما كان هو الأب الرّوحي لهذه الفكرة، فقد تظاهر بالحاجة للذهاب للمرحاض، وهناك استبدل رداء السجن بملابس "ملكية" واستطاع أن يهرب دون أن يفطن لحيلته أحد فيما ظلّ رجل البوليس الموكل به في انتظار خروجه.

وبينما هو عائد من الإسكندرية بعد أن قتل مومساً (تعني في الفقه "الفاجرة جهاراً" ويقال إنّ أصلها يوناني "ميمس" وتعني "الراقصة المعبرة") هناك وسلب حليها إلى محطة مصر تمكن رجال البوليس السريّ من القبض عليه، وذلك بحسب ما جاء في العدد ٤١٨ من مجلة اللطائف المصورة في ١٢ فبراير ١٩٢٣ م..

****

13- ما رأيك في وصفك بالصيدلي الموسوعي لتعدد مؤلفاتك وشموليتها في مجالات مختلفة؟

أنا أبعد ما يكون عن هذا الوصف وأكثر من يستحق هذا الوصف قديماً هو صاحب كتاب (السمير المفيد في شرح المواليد): "إبراهيم ماجد" أجزاجي (صيدلي) كيماوي من الدرجة الأولى.. والكتاب بحسب غلافه "طبع بمطبعة الواعظ بشارع درب الجماميز بمصر.. الطبعة الثانية ١٩١١ م، وقررت نظارة المعارف العمومية استعمال هذا الكتاب لتلاميذها في نفس العام".. الكتاب موسوعي بحق ويتبع أسلوباً شيقاً في العرض عبر إدارة لغة الحوار بأسلوب أدبي رصين لتسهيل الفهم.. الجزء الأول: يتضمن طبائع المخلوقات الحيوانية من طيور وأسماك وحشرات والجزء الثاني: يتضمن حياة النباتات والجزء الثالث: يختص بالمعادن... وأنا أقلب صفحات هذا الكتاب توقفت عند "الزئبق" ويعرفه صديق مهنتنا الدكتور الموسوعي "ماجد": "أنّه فلز أبيض فضي.. يتميز عن باقي الفلزات بكونه سائلاً ولا يتصلب إلا على درجة حرارة شديدة الانخفاض ٤٠ تحت الصفر.. يستعمل في عمل المرايا والترمومترات (مقياس الحرارة) والبارومترات (مقياس ضغط الجو)"... عند هنا توقفت عن مطالعة كتاب صديقنا، وبدأت أسرح بخاطري مع رحلتي مع هذا "الفلز ".. ففي أثناء عملي بالدعاية الطبية كنت أزور عيادة طبية من قسمين قسم خاص بعيادة جلدية لطبيبٍ ذي معدلات كبيرة من تردد المرضى وإلى جواره قسم آخر خاص بعيادة صدرية لا يزورها أحد.. طبعاً المندوب مرتبط بعدد معين من الزيارات اليومية وفئات الأطباء مقسمة إلى درجات أولى وثانية وثالثة، بحسب أهمية الطبيب ومعدل تردد المرضى عليه وكان صاحبنا طبيب الصدرية خارج هذه الدرجات ومن

الفئة التي نسميها "تحت الصفر"، لكن أحياناً تأخر الوقت مع طول مدة الانتظار لأطباء الفئة الأولى وعدم وصولك للرقم المحدد لعدد الزيارات اليومية قد يدفعك لزيارة الفئة "تحت الصفر" لمجرد احتساب زيارة وإحقاقاً للحق، فحينما زرته للمرة الأولى بدا رجلاً أنيقاً يرتدي بذلة كاملة ودوداً، وبدأ يحكي لي مشوار دراسته العليا في إنجلترا، وكم كانت فارقة معه، وتكررت زياراتي له وفي إحدى المرات بدأت أشعر أنه يعاني من اضطراب نفسي ما تأكد لدي حينما بدأ يقترح عليّ قائلاً: "محمد.. آن أن نودع حياة الفقر وأن نصبح أغنياء كلمح بالبصر".. فقلت له مندهشاً وقد أخذت كلامه على محمل الجد: "كيف؟" فقال لي باهتمام: "الزئبق الأحمر هو الحل.. نبحث عنه ".. وقتها لم أكن أعرف عن الزئبق الأحمر شيئاً، فودعته على وعد بدراسة الموضوع.. طبعاً لم يكن النت وقتها وسيلة متاحة كما هو الآن، فسألت صديق لي كان "فلاح قراري (في عرفنا تعني ابن القرية الفطن لكن أصلها التاريخي "عبد قرار" أي أنّ الفلاح يتحول إلى عبد يعيش على قطعة من الأرض يمنحها إياه سيده الإقطاعي، ويكون مربوطاً إليها، ولا يملك حرية الانتقال عنها أو مغادرتها هو وأولاده وإن تركها يعاد إليها قسراً أو يغرم مالاً وللأسف الشديد يعود هذا النظام لعصر صلاح الدين الأيوبي)" فقال لي: ابتعد عنه فالزئبق الأحمر غير معروف التكوين وربما كان يورانيوم أو بلوتونيوم أو ليثيوم، وطالبوه إما سحرة يستحضرون الجان أو باحثون عن الآثار أو حالمون باستخلاص الذهب بواسطته، أو في أعلى درجات الجنون وتتملكهم الخيالات والأوهام بامتلاك سلاح نووي بواسطته وبيعه.

عدت إلى العيادة وسألت الممرض بشكلٍ وديّ عن حالة الطبيب والتي لا أظنها تتبع الحالات التي ذكرها صديقي القراري، فحكى لي قصته من أنّه كان طبيباً مرموقاً

لكن تخلي زوجته الإنجليزية عنه والتي كانت تصغره بكثير أدخله في حالة من الكآبة اتبعتها أوهام وخيالات.. شفاه الله إن كان ما زال حياً ورحمه الله بواسع رحمته إن كان ميتاً..

من الدعاية إلى مجال الجودة كان لي أيضاً قصة طريفة مع الزئبق لا شك أن جهاز ضغط الدم الزئبقي هو الأكثر صحة في قياس ضغط الدم على الرغم من قدمه مقارنة بالأجهزة الإلكترونية.. لكن مع الخوف من التسرب الزئبقي وخطره على البيئة وتأثيراته السلبية على الكلى والدماغ والرئة، إن حدث تحطم للجهاز وانسكب الزئبق بحسب صحيفة "بيانات سلامة المادة (**Material Safety Data Sheet** اختصاراً **MSDS**)".. لذا فبدأت المنظمات المسؤولة عن الجودة الطبية تضع ضمن معايير السلامة بالمستشفيات اشتراطات لخلو أماكن الرعاية الصحية من الأجهزة التي تحتوي على الزئبق.. حكى صديق لي أنّ صاحب مستشفاه كان يستورد هذه الأجهزة الزئبقية وفوجئ بهذه الاشتراطات فجمع بعض حاشيته المقربة لاجتماع ومنهم صديقي للبحث عن حلٍ، فمنهم من قال: نلتزم ونتخلص من الأجهزة فاستشاط صاحب المؤسسة الطبية والمستورد في نفس الوقت قائلاً: وهل أترك أموالي تتطاير مع الزئبق؟! ثمّ استطرد قائلاً: هل تدري تكلفة التخلص من الزئبق واشتراطات البيئة؟! في النهاية اهتدوا إلى جمع الأجهزة التالفة والتخلص من الزئبق في مياه الصرف (طبعاً بذلك فهم أهالوا التراب على معايير السلامة)! وشراء أجهزة إلكترونية جديدة لمجرد الظهور بمظهر الحداثة حتّى تنتهي زيارات الجودة "وتعود ريما لعادتها القديمة" مع التنبيه على الأطقم الطبية بإخفاء الأجهزة الزئبقية العاملة لحين انتهاء مرور فرق الجودة، ثمّ تعود بعد ذلك للعمل... وهذه واحدة من

قصص كثيرة لطريقة تعامل بعض العقول الجامدة مع أفكار الجودة الرامية إلى الحداثة والحفاظ على صحة الإنسان.

نعود للقب الصيدلي الموسوعي في عصرنا الحالي ولا أجد خيراً من الدكتور المبدع "أحمد محمد عوف" الصيدلاني بالقوات الجوية المصرية يستحقه والذي أثرى "الويكبيديا" بمقالاته في بداياتها وكان له مقال علمي شهري في مجلة العلم التي تصدرها أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا، يناقش فيه آخر مستجدات العلوم الحديثة ومن أشهر مقالاته تلك التي طرح فيها نظرية (الكون الأعظم) في الفلك ونشرتها مجلة "العلم" في أربع مقالات مفنداً نظرية النسبية لأينشتاين... ومن كتبه الموسوعية الغزيرة: "الأزهر في ألف عام، منظومة الحياة، عبقرية الحضارة المصرية القديمة، صناع الحضارة العلمية في الإسلام، عبقرية الحضارة الإسلامية.."

****

14- ما هي أكثر المقالات التي تثير فضولك واهتمامك في أرشيف الصحافة المصرية؟

أكثر ما يثير اهتمامي ويحظى باحترامي هي المقالات الصادقة التي يبتعد صاحبها عن الموالاة لعظيم وكيل المديح لزعيم وإضافة زيف الأعمال لبارز أو شهير وتزيين الخطأ والدفاع عن الباطل تحت شعار الحداثة والنفور من التقاليد.

ومن الأمثلة التي صادفتني:

المثال الأول: مقال للآنسة "حواء إدريس" تحت عنوان "ليس في مصر خمسة عظماء" نشرته مجلة الاثنين والدنيا في عددها ٣٦٦ في ١٦ يونيه ١٩٤١م، وقد علّلت الكاتبة عنوانها التقريري الصادم بأنّنا في "بلد يقاس فيه قدر الرجال بالمال والجاه والسلطان بينما في غيرها تقاس العظمة بما يؤديه الفرد من خدمات جليلة اجتماعية أو علمية" وتتسائل: "أين هو ذلك العظيم الذي وفق إلى اختراع مفيد؟ أو اكتشاف جليل أو قام بمشروع عظيم قضى على إحدى آفاتنا الاجتماعية؟ أين هو ذلك العظيم الذي كشف عن أسرار الكون وكنوز العلم؟ أين هو ذلك الإنسان العظيم الذي ضحى بحياته وماله في أداء رسالة نبيلة للبشرية المعذبة؟ فهل توافرت في واحد من رجالنا هذه الصفات؟" وترد على ذلك مختتمة مقالها بالقول: "أنا شخصياً لا أعرف.."

ربما جاء المقال في سياق الرد على توفيق الحكيم ومحاكراته وكان الأخير قد طرحت عليه مجلة "الاثنين" في عدد سابق سؤالاً عن خمس عظيمات في مصر فاستصعب الإجابة، وانتخب ثلاث عظيمات ومضى يبحث عن الرابعة! وربما جاء المقال أيضاً يحمل غضبة مكبوتة لعدم الاعتراف بحق المرأة في الانتخاب أسوة بالرجل.. لكنّه في

الوقت نفسه يكشف حقيقة مهمة أنّنا لم نضف للتراث الإنساني أمراً متفرداً وذات شأن يليق بمكانتنا كأمة ناهضة في الحاضر، وصاحبة إرث من حضارة غابرة في الماضي... أتدري عزيزي القارئ أن أكثر من يعجبني من السياسيين هو" أحمد زيور باشا" (راجع تاريخ حائر بين بان وآن للمزيد عنه)؟! أتدري لماذا؟! لأنّه كان صادقاً مع ذاته وما أندر هذه الخصلة في الحقل السياسي!! أنا مثلاً متصالح مع فكرة أنّ لا أحد يحبني ولا أصدقاء لي! لذا تعجبني صراحة الرجل الفجة والصادمة، حينما زاره فتح الله بركات باشا وأحمد على باشا بعد اجتماع المؤتمر الوطني عام ١٩٢٦م، ليستعجلاه في استصدار المرسوم الملكي بتحديد موعد الانتخابات فقال: "ولكنّكما كنتما في الوزارة وتعلمان أنّ للإنجليز رأياً".. فرد فتح الله بركات: "نحن كنا في الوزارة حقيقة، ولكنّنا لم نستشر الإنجليز" فضحك زيور قائلاً: "أنت يا حبيبي كنت في وزارة الشعب أما أنا!!" جميل اعتراف الباشا أنّ القرار بيد الاحتلال والأجمل أيضاً أنّه يعي أنّه جاء بغير إرادة شعبية... الطريف أنّ حبَّ الباشا للنوم المبكر كان السبب في كونه عدوّ السينما رقم (١) والتي تدعو محبيها للسهر، فهو لم يشاهدها إلا مرة أو مرتين خلال ربع قرن، وقد استسلم لسبات نوم عميق خلال عرض الفيلم وذلك بحسب مجلة الاثنين والدنيا العدد ٥٥١ في ١ يناير ١٩٤٥ م، وربما كان السبب أيضاً عدم إجادة الباشا للغة بلاده التي يحتل فيها منصب رئاسة الوزراء...

المثال الثاني: مقال الفنانة "بهيجة حافظ" في مجلة "الرأي العام' العدد ٢٢ في ٤ فبراير ١٩٤٦م (يصدرها ويدير سياستها "أحمد قاسم جودة") تحت عنوان "سمعتنا المصرية في الخارج "وتحكي فيه أنّ صورة مصر لدى الأجانب أنّها "دولة أفريقية همجية أهلها من الحفاة والعراة" وأكلة "الثعابين ولحوم البشر" ويمتطون ظهور

"الفيلة" ويصادقون "القردة" وأنّها دولة لا تعرف الكهرباء ولا اللاسلكي ولا الترام! ويندهشون من أنّ بها فناً وسينما ومسرحاً وراديو وموسيقى، ويبدون اندهاشاً من كونها فنانة مصرية وتستعمل "الشوكة والسكينة" ويظهرون انزعاجاً من نظام "الحريم" والرجل الذي يعاشر "مائة زوجة" ومن هذا كله تستغرب الفنانة القديرة من سخاء الأموال التي تنفق من جانب الحكومة المصرية لتشجيع السياحة لمصر والدعاية لها بالخارج متسائلة عن جدوى القنصليات والسفارات، ونشرات مصلحة السياحة والمؤتمرات الأوروبية والأمريكية كمؤتمر سان فرانسيسكو ومجلس الأمن التي تشارك بها مصر والأموال التي تنفق على الصحف الأجنبية للدعاية لمصر..

أعتقد أنّ فنانتنا ربما جمح بها الخيال، فشطحت في نقل صورة مصر لدى الأجانب بدولة "تركب الأفيال" أو تأكل الثعابين وغيرها من الأوصاف التي تليق بدولة في أقاصي أفريقيا أو الهند وليس مصر! والأصح ما أوردناه في كتاب "نزهة الألباء في مطارحات القراء" من صور تناقلها الآخرون وربما أرادت الفنانة أن تحذو حذوهم في حينها...

لماذا استغرب مقالة الفنانة "بهيجة حافظ" عن مصر في عيون الغرب واصفاً إياها بالشطحات؟! هذا سؤال له إجابات منطقية عندي.. ألم يكن بمصر جيوش الحلفاء فترتيّ الحرب العالمية الأولى والثانية مجندون ومجندات، وأعدادهم ليست بالقليلة وبعضهم عاد لبلاده وحكوا وقصوا عن مصر وأهلها وطبائعهم؟! بالتأكيد وقطعياً الإجابة: نعم.. وانظر هذا المثال من مئات الأمثلة الدالة، فقد نقلت مجلة الاثنين والدنيا عام ١٩٤٥م، عن المجندة البريطانية "إيف أوبراي" وهي على أهبة الاستعداد

للعودة لبلادها بعد أن وضعت الحرب أوزارها أنّها ستذكر عن مصر أنّها "بلد عريقة في المدنية غنية بآثار عظمتها الغابرة ومجدها القديم" وأنّها "غنية بمحصولاتها الزراعية من خضروات وفاكهة" وأنّ "الفلاح المصري هو أشقى رجل في الوجود يفنى صحته وعمره وقوته ليحصل على القوت التافه واللباس المزري والأمراض التي لا يقوى على دفعها" ولهذا اتخذته الصحافة المصرية "رمزاً لمصر".. وهي لا تنسى قارب "آنكل عمر" الشيخ المصري البشوش الظريف بكلماته الإنجليزية القليلة التي كان يستقبلها ويودعها بها ولن تنسى أن توصي مواطنيها "بطبق الفول المصري والملوخية الخضراء والباذنجان المحشي والبصارة"..

كما أنّه من المحال تصور أنّ النماذج النسائية المصرية المتفردة في بدايات القرن الماضي لم تكن عنواناً بارزاً لمدنية مصر ودعاية لنهضتها فالصحف الأوروبية العاملة في مصر كانت كثيرة، وكانت تنقل عن التجارب التقدمية داخل مصر، ومنها مثلاً تجربة الآنسة عفيفة اسكندر إبراهيم (كان والدها محامياً) والتي تخصصت في مجال دراسة علم الآثار المصرية على مدار ست سنوات، وهي دراسة بلا شك صعبة للغاية في هذه الآونة التي ما زالت فيها الأرض المصرية تجود بما تحوي من آثار الفراعنة العظام، وقد أحرزت تفوقاً كبيراً بتخصصها، وصارت ثالث امرأة في العالم في هذا المجال...

الآنسة نعيمة الأيوبي (ابنة المؤرخ إلياس الأيوبي) مثال آخر على النهضة النسائية فهي أوّل محامية مصرية ومن أوائل الفتيات اللاتي التحقن بالجامعة المصرية لدراسة الحقوق عام ١٩٢٩م، بمساعدة الدكتور طه حسين والذي نصحهن بالتزام الصمت حتّى موافقة الجامعة على التحاقهن خشية تسرب الأمر إلى الصحف وتأليب تيار

الرأي العام المحافظ ضدهن، والطريف أنّ عزلة الطالبات ظلت عنواناً لهذه التجربة النسائية الجامعية في فترتها الأولى، فقد كانت النظرة لهن داخل الجامعة كأنهنّ "مخلوقات عجيبة تظهر على الأرض للمرة الأولى"، وذلك بحسب مقال لها نشر في ١٣ مارس ١٩٤٥م، بمجلة "الاثنين والدنيا". الطريف هو تعليق السيدة هدى شعراوي على سؤال لمجلة "المصور" في عددها ٥٢٣ في ١٩ أكتوبر ١٩٣٤ م، حول اعتزال الآنسة نعيمة الأيوبي للمحاماة وما في ذلك من خذلان للحركة "النسوية" في مصر. فأجابت السيدة هدى شعراوي بأنّ الاعتزال جاء حينما شعرت نعيمة الأيوبي "بعدم كفاءتها" في هذا الميدان ولو أنّها استمرت في عملها بعد أن عرفت هذه الحقيقة "لأساءت إلى قضيتنا أكثر مما فعلت باعتزالها"، وأضافت قائلة: "واعتزالها ليس فشلاً للمرأة وإنما هو رجوع إلى الحق والرجوع إلى الحق فضيلة في المرأة على العموم"حصاد هذه المرحلة من العمل النسائي اتفقنا حول بعض جوانبها المضيئة أو اختلفنا مع بعض ظواهرها السلبية، فقد كان ظاهراً للعيان.. انظر في التقرير الذي أعدته مجلة مسامرات الجيب العدد ١٢٦ في ٧ ديسمبر ١٩٤٧م تحت عنوان "هل نجحت الفتاة المصرية تحت قبة الجامعة؟!" واستطلعت فيه آراء بعض عمداء الكليات النظرية والعملية وجاءت آراؤهم على النحو التالي: (إبراهيم شوقي بك عميد الطب: "نجحت بكلّ تأكيد وفتحت الكلية أمامهن الطريق لنيل الدرجات العالية وارتقاء أعلى المناصب العلمية بالكلية -حامد سليمان بك عميد الزراعة: "نجحت والفتاة المصرية تتمتع بعقلية قوية وتفكير نافذ وإدراك واسع.. عقلية لها كلّ مقومات التفكير الصحيح"- حسين كامل سليم بك عميد التجارة: "نجحت نجاحاً باهراً في النشاط العلمي أما النشاط الاجتماعي كالحفلات والمسابقات والمناظرات والمباريات

ما زالت لعدم تعودها الجوّ الجامعيّ، وما جبلت عليه من حياء (وهل في المرأة ما هو أفضل وأعظم من حيائها؟!)"- حسن إبراهيم بك عميد الآداب السابق: "زاد عدد الطالبات من خمس أو ست عام ١٩٢٨م إلى ٣٥٠ طالبة، والاختلاط ما زال محدوداً بسبب العادات والتقاليد! وأنّ كثيراً من الخريجات يشتغلن بالتدريس وفي وزارة الشؤون الاجتماعية وفي الشركات الأجنبية، وأظهرن كفاية ممتازة ومثابرة على العمل").. وانظر للمثال المتجسد لهذا النهوض في شخص الطالبة "حسن شاه" بكلية الحقوق جامعة فؤاد والتي رشحت نفسها لانتخابات الاتحاد حالمة بإنشاء مكتب عمل في كلية الحقوق لتوفير عمل للطلبة أصحاب الدخل المحدود في أوقات الفراغ، وذلك بحسب العدد ٨٤٠ من آخر ساعة في ٢٩ نوفمبر ١٩٥٠م.. الجدير بالذكر أنّ (حسن شاه) أصبحت من ألمع نجمات الصحافة المصرية والعربية فكانت من أوائل من خضن تجربة صحافة "التقمص" فتقمصت دور "كمسارية" لعمل تحقيق صحفي... كما كان لها السبق في إجراء حوارات بالجزائر مع الفدائيين بعد جلاء المستعمر الفرنسي عنها عام 1962م، وهي صاحبة قصة فيلم "أريد حلاً" والذي قامت ببطولته الفنانة فاتن حمامة، وكان السبب في تعديل قانون الأحوال الشخصية. بالتأكيد كلّ هذا كان له صداه في الغرب ولا يمكن *إغفاله*..

لا أنكر أنّ دعايات صاخبة ضد مصر قد أجمعت على تدني مستوى حياة الفقراء في مصر وهي محقة ولعلّ أبرزها كتاب الفنان متعدد المواهب "جان كوكتو" والذي اختار له اسم "معلش" وهي الكلمة الدارجة لدى جموع المصريين، والتي تعكس ثقافة التسويف في الالتزامات لدى المصريين، وقد اشتمل الكتاب على ملاحظات كاتبه أثناء زيارته لمصر عام ١٩٤٩م، حيث تفتقد مصر الطرق الممهدة ويمكن رصد تلاقي

النقيضين فيها "الرفاهية والبؤس" بمجرد النظر من نافذة السيارة فهي بلد "يسودها حكم الخمسين أسرة، وليست هناك طبقة وسطى، والباقون يتسكعون بشكل مربك." ملوحاً بحتمية الثورة إزاء هذه الأوضاع في قوله: "وإنّ المرء ليتكهن فيما قد يحدث مع ثورة يقوم بها هذا الشعب؟!"... الضوضاء بمصر لا تتوقف والسائقون يستخدمون أصوات "الكـلاكسات" بدون انقطاع "لأنّهم يظنون أنّ صوت الكـلاكس كفيلٌ بإطفاء نور الإشارة الأحمر، وقد سألت سائق السيارة: لماذا تكثر من استعمال الكـلاكس؟ فأجابني قائلاً: لكي أطفئ النور الأحمر، فأخذت أشرح له أنّ هذا النور يتغير بحركة ميكانيكية، وأنّه مهما يستعمل الكـلاكس لا يمكن أن يغيّره إلى الأخضر، ولكن حدث في هذه اللحظة بالذات أنْ أضاء النور الأخضر فالتفت نحوي بشماتة وأشار بيده قائلاً: هل رأيت؟!".. كما يرصد ظواهر كثيرة من قلب البيئة المصرية كالبقشيش والفصال في المعاملات التجارية وتدخين الجوزة ومظهر البرقع الذي يكشف أكثر مما يستر وغيرها.

ثمّة أمر آخر أتوقف عنده وهو القسوة في توجيه القصور للسفارات والقنصليات المصرية في الدعاية لمصر في العهد الملكي من قبل بعض الفنانين والمثقفين والحقيقة أنّ المسألة فيها قدر من الصحة وفي نفس الوقت مساحة من التحامل فبعض السفارات كانت تعاني وتتعرض لمواقف همجية عدة وحسبنا أن نورد مثالاً منها وحكاية الأستاذ "**بطرس بادير أو *بطرس أبادير***"، والذي قضى زهاء العامين في الصين الشيوعية من نوفمبر ١٩٤٨م إلى ديسمبر ١٩٥٠م، في مهمة دبلوماسية "كقائم بأعمال السفارة المصرية" هناك ونشبت خلافات بينه وبين أحد "خدم السفارة" من الصينين ذلك أنّ الصيني كان يأتي للعمل مترنحاً من الخمر. وبدلاً من فصله أخذ

عليه السفير تعهداً كتابياً بعدم معاقرة الخمر في مكان العمل، لكن الخادم الصيني استمر في غيّه وصعد الأمر إلى البوليس متهماً القائم بأعمال السفارة بضربه وإرغامه على العمل، وبعد تأكد البوليس من كذب ادعائه نصح السفير بإعطائه باقي مستحقاته وفصله، فقرر الخادم الانتقام فأغرى عصابة من المجرمين بأنّ السفارة المصرية لديها "كنز من الدولارات وسبائك الذهب (تصور!)" فهاجموا السفارة في ٣ سبتمبر ١٩٥٠ م، واعتدوا على القائم بالأعمال بخمس طعنات إحداها قريبة من القلب، فسارعت زوجته بالاتصال بالدكتور "تريمار" الطبيب الأمريكي الوحيد في بكين والذي نقله لمستشفى "كولو" وهناك قضى تسعة أسابيع للعلاج من الجروح المميتة بعدها عاد وزوجته إلى القاهرة، وذلك بحسب ما جاء في العدد ٨٥١ من آخر ساعة في ١٤ فبراير ١٩٥١م..

بقي أنْ ألفت النظر أنّ أكثر ما ينال من سمعة مصر هو تخليها عن فنانيها في أوقات الكبر والعوز وهي ظاهرة قديمة، فنجد مثلاً في مجلة الاثنين والدنيا العدد ٧٠٢ في ٢٤ نوفمبر ١٩٤٧م، خبراً عن "فؤاد فهيم" الممثل بالفرقة المصرية الحديثة والذي يشكو الحاجة فمرتبه لا يزيد عن سبعة عشر جنيهاً، بينما مرتبه في فرقة منيرة المهدية منذ ٢٥ عاماً، كان خمسة عشر جنيهاً في "أيام الرخاء"، وظلت مذكرة الرجل تنتقل من مكان لآخر وهو يتضور جوعاً وأسرته ولا حياة لمن تنادي.. وإذا كنا نريد أن نستفيد فعلاً من دروس الماضي ونحسن صورة مصر داخلياً وخارجياً، فلا ينبغي أن نسمح أن يتسول أبناء مصر على اختلاف درجاتهم العناية الصحية التي ينبغي وأن تكون حقاً مكفولاً لهم طوال الوقت...

نعود لمقالة الفنانة "بهيجة حافظ" وعلى كلّ فموقع مصر في أفريقيا بلا شك ظلمها عبر التاريخ فضلاً عن أنّه في الماضي. كانت مناقشة مثل هذه القضايا الخاصة بنقد الذات كان أكثر حرية من الحاضر فلك أن تتخيل إقدام صحيفة معاصرة على مناقشة قصور كهذا أو على شاكلته لقامت الدنيا ولم تقعد وسط صخب اتهامات بالإساءة لسمعة مصر قد يصل لحد الخيانة والعمالة لجهات أجنبية..

لكن هل حقيقي أنّ الرجل في مصر يعاشر "مائة زوجة" كما نقلت فنانتنا القديرة من رؤيا الغرب لنا؟! حقيقي جدّاً، ولأنّنا نتحدث عن الصدق مع الذات فلم أرَ مثالاً خيراً من الشيخ "مصطفى تهته" حانوتي (يقال إنّ أصلها فرعوني من "حانوطي" أي متعهد غسل الموتى والدفن وقيل إنّها اسم منسوب للحانوت أيّ صاحب الحانوت أو الدكان أو المحل) حي المناصرة والذي أجرت معه مجلة "الدنيا المصورة" حواراً في ١٢ فبراير ١٩٣٠ م، والذي يبلغ من العمر خمسة وتسعين عاماً، وتزوج باثنتين وأربعين زوجة، ومع ذلك فهو فخور بذلك ويمتلك ذاكرة قوية حول أسماء زوجاته فالأولى المرحومة "فاطمة" بنت المرحوم إسماعيل النجار، ثمّ "زنوبة" وهكذا ومازال يحلم بالزواج مجدداً من "قطقوطة كمان".. وحول طريقته في حشد هذا العدد الكبير من الزوجات، فقد كان يلقي شباكه على أرامل المتوفين الفقراء، فيتنازل عن أتعابه أحياناً وقد يساعد في مصاريف المأتم أيضاً، ثمّ يتزوجهن بعدها مباشرة! وكما يقولون في المثل: "الحانوتي لما يسعد يجيله خارجتين في ليلة" لذا فقد كانت أكثر أمنياته كما جاء في الحوار أن يرى ابنه "شيخ حانوتية مصر" وأن يكون الشغل عنده "بالزوفة".. حقاً مصائب قوم عند قوم فوائد.. ولأنّ الشيء بالشيء يذكر؛ فمن طرائف حوادث الخلع أن أقدمت طبيبة مصرية عام ٢٠٠٩م، على طلب الخلع من

زوجها الطبيب البيطري بعد أن اكتشفت أنّه "حانوتي" وخدعها طيلة أكثر من عام إلى أن اكتشفت حقيقة عمله بالمصادفة أثناء مكالمة هاتفية بينه وبين مساعده بحسب موقع مجلة الإذاعة والتلفزيون (ماسبيرو)..

****

15-هل من تجارب أخرى في تدريس الأخلاق أفردت لجوانب لم تذكرها بكتبك وتريد أن تتحدث عنها هنا؟

أعجبني جدّاً كتاب "الأخلاق للبنات.. تأليف محمد أحمد رخا بك مدير المخازن بوزارة المعارف ومحمد حمدي بك ناظر مدرسة التجارة العليا ١٩٢٦م.. قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب بمدارس البنات الأولية والابتدائية والأولية الراقية والمعلمات".. الكتاب يفرد لمساحات شديدة الأهمية ويمتاز فيها عن سابقيه بالتنبيه على بعض الممارسات الخاطئة واستهجانها والتصدي لها وهو الهدف الذي جاء في مقدمة الكتاب- نوفمبر ١٩٢٢م: "فقد حدانا إلى تأليف هذا الكتاب ما نشاهده في معظم الأسرات المصرية من فُشو الأوهام والخرافات" ويرجع الكاتبان ذلك إلى "قصور المرأة عندنا وأنّها لم تستنر بعد بنور العلم والعرفان".. من العادات الخاطئة التي يتحدث عنها الكتاب: زيارة القبور حيث تتوجه النساء في "جماعات وزرافات (أعتقد الأفضل زرافات ووحدانا يقول الشاعر الجاهلي: "قريط بن أنيف العنبري التميمي" ممتدحاً بني مازن: قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم قاموا إليه زرافات ووحدانا) يتعثرن في أذيالهن" في أيام الجمع والمواسم والأعياد حاملين الكثير من المآكل كالفطير والكعك والفاكهة، إضافة للمشارب للتصدق به على من يطوفون بالمدافن والجبانات من الشحاذين وهؤلاء النسوة وأسرهم أحق بها منهم محذراً من أنّ شحاذي المقابر "ليسوا محلاً للصدقة ولا أهلاً للإحسان؛ لاتخاذهم الشحذ حرفة وذريعة للكسب"، كما أنّ هذه العادات لا تعود بنفع على الميت وقد صار في "حياته الآخروية".. كما يتحدث الكاتبان عن المستهجن في الجنازات والمفترض فيها أنّ تكون للاعتبار وذكرى الموت، فتخشع القلوب وتعود الأنفس عن غيها وقد

أدركت حقيقة الدنيا وأنّها "عرض زائل والأخرة خير وأبقى"، ويستعرض نماذج من التزيد في المآتم والخروج عن العرف المقبول، حيث تشترط بعض النسوة أن يصاحب جنازات ذويهم "فرق الموسيقى" الحزينة وجند يسيرون أمامه مع أنّه لم يكن عسكرياً وحملة القماقم والمباخر و"فئة من الرعاع" يتلفظون بألفاظ غير مفهومة وفي نهاية الجنازة "نسوة ملطخات الوجوه والأيدي بالطين والنيلة صائحات، نائحات، مولولات، معولات.. يقبضن النفوس بمظهرهن الشنيع" كما يتعرض لسلبيات أخرى من المجتمع النسويّ المصريّ كالحجب والتمائم والزار وغيرها..

****

16- حديثك عن أنّ "فاروق" كان ينتوي تشكيل حكومة عسكرية في مصر وأنّ ثورة يوليو ١٩٥٢ م عاجلته قبل أن ينفذ ما انتواه بحسب ما جاء في كتابك "نزهة الألباء في مطارحات القراء"... أعتقد أنّه مجرد حدس لا يرتقي للحقيقة التاريخية ولا تؤيده الوقائع أليس كذلك؟!

أولاً: نقطة التغيير في برامج الإذاعة يمكن أن تلحظها بسهولة بمقارنة ما أوردته في كتاب رواق القصص الرمضاني مع برنامج الإذاعة الموسيقية عام ١٩٣٥م (عهد الملك فؤاد) بمناسبة عيد الجلوس الملكي "من الثلاثاء أول أكتوبر لغاية الثلاثاء ١٥ منه" والذي جاء أصحاب فقراته على النحو التالي: (رياض السنباطي - الآنسة س(؟) - صالح عبد الحي- فاضل الشوا - كمان الشوا- عبد الله عكاشة وفرقته- محمد حسن الشجاعي- زكريا أحمد - عبد الحليم نويره- نادره- فؤاد حلمي- ليلى مراد - سكينة حسن - محمد صادق وغيرهم) ما عدا ذلك فهناك فقرتين فقط للبوليس: الأولى في صباح يوم ٦ أكتوبر لفرقة بلوك خفر بوليس مصر والثانية في صباح يوم ١١ أكتوبر لمدرسة البوليس...

ثانياً: طبقاً لشهادة الأستاذ "محمد حسنين هيكل" من وحي الوثائق البرازيلية أنّ "فاروق" كان ينوي القيام "بانقلاب ملكي أبيض ويقود ثورة بيضاء" بحسب حديث له مع سفير البرازيل في القاهرة، ونقله الأخير لحكومته ويشرح هيكل أنّ فاروق كان ينظر للأستاذ "أحمد مرتضى المراغي" وزير الداخلية كجواد رابح بحكم خلفيته المهنية كرجل أمن كفء جمع بين وزارتين سياديتين، فكان وزير الداخلية والحربية والبحرية في وزارة "أحمد نجيب الهلالي الأولى" كما تولى عبر تاريخه الوظيفي مهام حفظ النظام، فكان مديرًا لمديرية بني سويف وتلاها القليوبية وأخيرًا قنا حيث سيطر على مذابح بين العرب وهوارة كما عُيّن مديرًا للأمن العام ومحافظاً

للإسكندرية، علاوة على ولائه الأسريّ فهو ابن الشيخ "محمد مصطفى المراغي" شيخ الأزهر السابق أيّ ابن النظام وليس بعيداً عن المطبخ السياسي، وكذلك يؤمن جانبه بحكم كونه غير مُوالٍ لأيّ من معسكرات الجيش وغير محسوب على تياراتها كفؤاد صادق ومحمد نجيب والفريق حيدر وبالتالي يمكن الاعتماد عليه في تشكيل وزارة عسكرية كورقة أخيرة وفرصة إنقاذ تضم عسكريين ومدنيين، ويوكل لها تجميد الحياة الديموقراطية عبر تعطيل الدستور وانتخابات مجلس النواب لمدة عامين يطلق فيهما "فاروق" سلطته بشكل مطلق (نفس السيناريو الذي نفذته الثورة بعد ذلك)... هل كان "فاروق" موفقاً في هذا التفكير لو تم؟! للأسف لا أعتقد ورهانه على "المراغي" كان خاسراً وفي غير محله، ولو قرأنا مذكرات المراغي التي تكشف حقيقة ما كان يضمره تجاه "فاروق" (راجع نوستالجيا الواقع والأوهام) لفهمنا السبب..

****

17- هل ما نسمعه اليوم من كثرة حالات الطلاق وتعدد حالات الزواج العرفيّ السريّ كان شائعاً في الماضي بحسب بحثك في أرشيف الصحافة المصرية؟!

أبدأ بسؤال الطلاق وهيّا بنا نحرك فانوسنا السحريّ صوب الماضي وتحديداً مجلة المصور في عددها ٨١٠ في ١٩ أبريل ١٩٤٠م، ودراسة إحصائية موسعة لمحمود كامل عن حالات الطلاق في مصر، وأسبابها ومن الدراسة نتبين أنّ معدل حالات الطلاق انخفض من ١١٪ عام ١٩١٧م إلى ٧٪ عام ١٩٣٧م، ويعلل ذلك بتراجع الشكل "التقليدي" في الزواج عن طريق الخاطبة وكان فيه للأم والقريبات الكلمة العليا ولا رأي لطالب الزواج أما العروس "المعروضة للزواج" فرأيها على سبيل الاستئناس لكن مع مرور الزمن تطور النظام الاجتماعي والذي أتاح الاختيار والتوافق بين الزوجين مما أسهم في انخفاض معدلات الطلاق..

أما عن أسباب الطلاق فالنسبة الأعلى بسبب الزوج (٢٩،٨٥٧) وبسبب الطرفين معاً (١٣،٧٣٦) فيما حلّ الطلاق بسبب الزوجة في المرتبة الثالثة (١٢،٤٣٠) وحول جوهر الأسباب المؤدية للطلاق، فتأتي في المقدمة الخيانة حيث بلغ عدد النساء اللواتي طلقن بسبب خيانتهن (٣٧١) في المقابل بلغ عدد حالات الطلاق بسبب الزواج بامرأة أخرى (٥٣٨٤) وكاتب الدراسة لا يتوقف عند ظاهرة الخيانة لدى المرأة بقدر ما يوجه سهام نقده لتساهل الرجل المصري مع النصوص الشرعية التي تبيح التعدد وتفسيرها بشكل واسع ومطاط دون تقيد باشتراطاتها..

يأتي المرض في المرتبة الثانية من أسباب الطلاق ويبلغ عدد الذين طلقوا زوجاتهم لهذا السبب (٧٢٦) أي ثلاثة أضعاف اللواتي طلبن الطلاق من أجله (٢٩٨) وهنا يبدي كاتب الدراسة تعاطفاً مع الزوجات اللاتي أفنين "نضارة صباهن وشبابهن في

أيام الزواج الأول".. وفي هذا اتفق معه وله كلّ الحق، ولذلك لا يصح أبداً الارتكان إلى ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من المذاهب الأربعة إلى أنّ الزوج لا يجب عليه أداء نفقة العلاج والدواء لزوجته وتعليلهم بأنّه أمر طارئ وليس من الحاجات الضرورية المعتادة قال الإمام الشافعي رحمه الله في "الأم" (337/8): "وليس على رجل أن يضحي لامرأته ولا يؤدي عنها أجر طبيب ولا حجام "وهو اجتهاد ينم عن فهم خاطئ لجوهر الإسلام قال تعالى: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) (النساء:19) والمعروف في القرآن يندرج تحته كلّ الأعمال الصالحة.. كما لا يجوز أبداً ترك الأمر للعادة والعرف بحسب بعض الفقهاء الآخرين لأنّ ذلك يتناقض مع تفسير معنى "المعروف" في الآية فالمعروف ليس "ما عرفه الناس، لأنّ الناس قد يعرفون المنكر وينكرون المعروف" وتركه هكذا هو ترك لهوى النفس، لذلك ينبغي إلزام الزوج بعلاج زوجته أو توفير تأمين صحي لها...

أما حالات الطلاق بسبب "كراهية الزوج (من جانب زوجته) " (٧،٢٧٢) بالمقارنة بحالات الطلاق بسبب "كراهية الزوجة (من جانب زوجها)" (١٥،٧١٣) أي النصف تقريباً.. ويرجع كاتب الدراسة ذلك لأنّ الزوجة "تختزن الهفوات وتغفر الزلات وتصبر على الأذى" أما الزوج فيوقع الطلاق بمجرد الإحساس بفتور في عواطفه.. وفي الهدي النبويّ علاج لهذه المشكلة التي قلّما ينجو منها بيت حتّى يومنا هذا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: (لا يفرَك مؤمنٌ مؤمنةً إن سخِطَ منْها خُلقًا رضِيَ منْها آخرَ) وفي ذلك حثٌّ على حسن العشرة فلا يوجد بين البشر إنسان كامل بلا عيوب وحتّى لا يغضب السادة العلمانيون أنّنا نعول على الدين في كلّ شيء وهو صلب الحياة، ولكن لا بأس أن نوصيهم باتباع نظرية "نصف

الكأس" وأنّ ننظر إلى النصف المملوء من الكأس ولا ننظر إلى النصف الفارغ فقط ..

نأتي للسبب الأخير للطلاق وهو عدم الإنجاب من جانب الزوجة وتبلغ الحالات (١٦٨٧) من بينها (٤١٦) حالة صبر فيها الزوج لفترات تتراوح من خمس لعشر سنوات قبل الطلاق..

بصراحة وبعيداً عن أي مواربة، فقد أحسست وأنا أقرأ هذه الدراسة بأنّ كاتبها يظهر المرأة "المصرية" بالمغلوبة على أمرها "مكسورة الجناح" كما يقولون باللغة الدارجة.. لقد كتمت بضع ضحكات مدوية، وتخيلت لو ركبت سفينة الماضي وعدت إلى زمنه وكنت معه الآن ودعوته لكوبيّ شاي نحتسيهما في المقهى المجاور للمجلة وتناقشنا ودياً حول هذه المسألة بعيداً عن النساء حتّى لا يحدث ما لا يحمد عقباه.. وقتها ربما كان بوسعي أن أطلعه على بعض الحكايات الطريفة منها زميلي في العمل الذي يطلق على زوجته "الإدارة" والآخر الذي يسميها "القيادة"، وأظرفهم من أسماها "المباحث" و"عودة الوعي".. وربما أخذنا الحديث عبر التاريخ إلى كتاب "فتوح مصر وأخبارها" لابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ) والذي أخذ عنه ابن كثير في البداية والنهاية من أنّ "نساء أهل مصر حين غرق من غرق منهم مع فرعون من أشرافهم ولم يبقَ إلا العبيد والأجراء لم يصبرن عن الرجال، فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوجه، وتتزوج الأخرى أجيرها، وشرطن على الرجال ألّا يفعلوا شيئاً إلا بإذنهنّ فأجابوهنّ إلى ذلك، فكان أمر النساء على الرجال" كما يورد أنّ الرجل يستأذن امرأته فيقول: "إنّ نساء القبط على ذلك إلى اليوم اتباعاً لما مضى منهم لا يبيع أحدهم ولا يشتري إلا قال: أستأمر امرأتي..".

وربما أخذنا الحديث عن جبروت المرأة المصرية من التاريخ إلى الفقه وما أورده العلامة «يوسف بن سعيد بن إسماعيل الصفتي المالكيّ الأزهري في "حاشيته على الجواهر الزكية في حل ألفاظ العشماوية" من القول: " لا تجوز إمامة من يكشف عورته لمن لا يجوز له النظرُ إليها، ومَن يعطِي زوجتَه دراهمَ لتَدْخُل بها الحَمَّام متجرِّدةً مع نساءٍ متجرِّدات، أو كانت هي متجردةً فقط أو هن متجردات فقط. أو أَقَرَّهَا على دخوله ولو لم يُعطها دراهم. ومحل كون ذلك من الكبائر: ما لَم تُعَكِّرْ عليه زوجتُه في أمْرِ معيشتِه - كنِساءِ مِصْرَ - فإنّه إذا دَفَع لها دراهمَ للحَمَّام لا يَحْرُم عليه ذلك؛ لأنّه إذا مَنَعَها مِن الذهاب إلى الحَمَّامِ تُنَكِّدُ عليه في أمْرِ معيشتِه، وربما كان ذلك سببًا في طلاقها".. فاستثنى زوج المرأة المصرية النكدية من واحدة من الكبائر التي لا تصح معها إمامة الصلاة! (طبعاً هذا من باب المزاح ولا يعتد به)..

ربما ضاق صاحبنا من الحديث في التاريخ والفقه وأراد الحديث في المعاصرة وأشاح بيده قائلاً: مالنا ومال التاريخ يا محمد أفندي (هذا هو أنا).

وربما كان صاحبنا من محبي أرشيف الصحافة مثلي وأخرجت من حقيبتي العدد ٢٣ من مجلة الدنيا المصورة في ٢٣ أكتوبر ١٩٢٩ م، وقصصت عليه قصة الفلاحة "مسعدة" التي دست سم الفئران (الزرنيخ) لزوجها "عبد الله أحمد شبانه" الحارس النظامي بقرية "كفر منصور" بالقليوبية لأنّها تحبّه وتغار عليه! وأنّها فعلت هذا بعد ثلاث سنوات من الزواج وطلقتين وقبل هذا كله قصة حبّ كبيرة جمعتها به وهي ما زالت زوجة لفلاح صياد يدعى "الجعليط" ظلمته وادعت عليه أمام العمدة أنّه يضربها ويمنع عنها "القوت والمؤونة" كي تتحرر وتتزوج من حبيب القلب وقد

كان.. وحينما مارس عبد الله حقه في التعدد وتزوج عليها "مباركة بنت يوسف" دفعها كيد النساء والغيرة إلى أن تفعل ما فعلت والطريف أنّ زوجها أفلت من السم بقوة "معدته وأمعائه" وكأنّه الراهب "غريغوري راسبوتين" (راجع تأملات بين العلم والدين والحضارة للمزيد عن مقاومته للسم) وحكم على المرأة بالسجن لمدة ثلاث سنوات... ربما قال صاحبنا: إنّها مسكينة... وربما رددت عليه أنا: لها أن ترفض العيش مع ضرتها تحت سقف واحد، وقد كانت مطلقة في هذا الوقت، لكن ليس من حقها أن ترتكب جناية لتدافع عن حبها.. وربما تطرقنا إلى الجنايات العالمية التي سبقت جريمة مسعدة ولا أظنها سمعت بها حتّى تقلدها ومنها مثلاً: قضية الفتاة الفرنسية الأرستقراطية التطلعات "ماري لافارج" يتيمة الأب والتي رغب أحد أعمامها في تزويجها من رجل ليس دخله الوحيد هو راتبه! وسعى في البحث عن الزوج الثري المنتظر عبر سمسار زواج وهنا تقع ماري في شباك "تشارلز باش لافارج" الذي قدم نفسه باعتباره تاجراً ثرياً، ولديه قصرٌ فخمٌ فتغاضت ماري عن مظهره الخشن المثير للاشمئزاز، وبعد أن تم الزواج اكتشفت الخديعة وأنّه مدينٌ وأصله ريفيّ، ومنزله رطبٌ ومليءٌ بالفئران ومبني على أنقاض أحد الأديرة.. انتقمت ماري من زوجها بأن وضعت سم الفئران (الزرنيخ) له بالكعك، ولكن بشكل تدريجيّ (كانت أنصح من مسعدة في ذلك) حتّى مات وحكم عليها بالأشغال الشاقة، ثمّ أفرج عنها صحياً بعد أن أصيبت بالسل وتوفيت عام ١٨٥٢م..

ربما سألني صاحبنا وقد علم أنّني أجزاجي في الأساس.. لماذا "الزرنيخ" هو السم المفضل في هذه الجنايات وغيرها؟! فأجبته لأنّه يكاد يكون بلا طعم ولا رائحة أو

لون مميز مما يجعل من السهل دسه خفية في الأطعمة والمشروبات (راجع كتاب تأملات بين العلم والدين والحضارة الجزء الأول)..

أتصور أنّ صاحبنا قد ضاق ذرعاً بي وربما اقتنع بعد أن سمع مني هذا القصص فغير رأيه وربما أيضاً أسرعنا الخطى للمطبعة لنحذف من البروفة ما يمكن حذفه من عبارات الأسى لوضع المرأة المصرية المقهورة تحت سطوة الرجل الغاشم..

أما عن سؤالك فيما يخص حالات الزواج العرفيّ السريّ، فهي كثيرة للغاية وتفصيل إجابة هذا السؤال إن شئت يحتاج لمجلد خاص وليس كتاباً واحداً.. العديد من الفنانين في الماضي وكبار رجال السياسة والحكم مروا بتجارب الزواج العرفيّ والسريّ، لذلك فضلت أن أنتخب مثالاً من صحافة الماضي، ولكن من حياة العوام الذين هم المحور الأبرز لكتبي.

في العدد ٣٢ من مجلة الدنيا المصورة في ٢٥ ديسمبر ١٩٢٩م، جاء ذكر واقعة كانت الأولى من نوعها في ذلك الوقت حيث شهد حي الميرغني بالإسكندرية قصة حب جمعت كريمة الخواجة "ميشيل بحامدون" الترزي البالغة من العمر ثمانية عشر عاماً وهي خريجة مدارس الراهبات وأرثوذكسية مرتدة عن المذهب الكاثوليكي وبين جارها بالحي "علي أفندي علي سيد أحمد" تاجر البقالة والمسلم البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً.. وبعد التعارف والإعجاب قرر الحبيبان الزواج في المحكمة الشرعية مع إخفاء الأمر حتّى تحين اللحظة المناسبة للإعلان والتي حال دونها وفاة والد الزوج.. وحتّى يحدث هذا الإعلان تعاهداً ألا يتماسا... وحدث ما لم يكن في الحسبان، حيث تقدم لوالد الفتاة شاب سوري من أثرياء التجار لقي ترحاباً من الأب وإعراضاً من الفتاة التي أصرت على الرفض ومع ضغوط أسرتها عليها لمعرفة السبب

باحت بسرها لشقيقتها الصغرى، ثمّ أمها.. أصيب أهل الفتاة بالصدمة وحاولوا التفريق بين الزوجين بكلّ السبل، فتقدم الأب بدعوى لفسخ العقد بينما رفع الزوج شكواه للمحكمة "طالباً زوجته بحكم الطاعة".. وأمام ذلك حاول أهل الفتاة إقناع الزوج بالتخلي عن زوجته مقابل المال فتظاهر الزوج بالموافقة وفي اليوم الموعود للطلاق وبينما الفتاة في السيارة مع خالها وأبيها قام الزوج وأهله باختطافها بالقوة وإنفاذ الزواج في بيته قسراً، فأسرع أهل الفتاة إلى قسم البوليس ومع اعتراف الفتاة أنّ زوجها "اغتصبها" بمعاونة أهله تم القبض على أسرة الزوج واحتجازهم في قسم العطارين، ثمّ الإفراج عنهم.. وفي الوقت ذاته تقدمت بطريكخانة الروم الأرثوذكس باحتجاج للمحافظ على عدم إخطار المحكمة الشرعية لها بهذا الزواج.

يعد هذا النوع من القضايا شديد الحساسية ورغم ذلك حاولت السينما المصرية تقديمه عبر فيلم "ليلة القدر" بطولة الفنان الكبير "حسين صدقي" وليلى فوزي وعرض للمرة الأولى في ٣ مارس ١٩٥٢م، لكن اعتراض الإخوة الأقباط على الفيلم حال دون استمرار عرضه بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، حيث أمر الرئيس "محمد نجيب" برفعه من جميع دور العرض فحاول الفنان "حسين صدقي" إجراء بعض التعديلات على الفيلم فغير اسمه إلى "الشيخ حسن" وزاد عليه سبعة دقائق أخرى لكن بقيت فكرة الفيلم في حد ذاتها هي جوهر المشكلة ومحل للاعتراض ليبقى الفيلم ممنوعاً من العرض بشكل نهائي.. ومن التجارب الأدبية كتاب "حائر بين الحلال والحرام" للكاتب الكبير إحسان عبد القدوس والذي لاقى اعتراضاً من كلا الجانبين المسلم والمسيحي...

18- في كتابك "نوستالجيا الواقع والأوهام" تحدثت عن السلحفاة "الفيل" وقصتها الطريفة، ولكن ما استوقفني لماذا نقلها الملك فاروق إلى حديقة الخاصة الملكية بأنشاص، ولم يستبقها في حديقة الحيوان كما كانت؟!

ربما أراد "فاروق" أن تكون جزءاً من برامج الترفيه عن ضيوفه من كبار الضباط الأجانب خاصة الأمريكان الذين كان يرتبط بهم بشكل خاص في فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها، ويمكن أن نستشف هذا الباعث مما جاء ذكره في العدد ٤٩٠ من مجلة الاثنين والدنيا في أول نوفمبر ١٩٤٣م، حيث دعا الملك "فاروق" الضباط الأمريكيين لمشاهدة المزارع الملكية في أنشاص وكان من بينهم مستر "كيرك" وزير أمريكا المفوض ورافقهم سعادة "مراد محسن" ناظر الخاصة الملكية وظهرت في الرحلة السلحفاة وعمرها وقتئذ بحسب المجلة ٣٠٠ سنة (طبعاً هنا خطأ واضح من جانب المجلة.. راجع هوامش على دفتر أحوال مصر) وقد راحت المجندات الأمريكيات يحاولن "إيقاظها من سباتها العميق (كسبات مصر في هذه الفترة) ليشاهدنها وهي تتحرك.."

****

19- تعرضت في كتابك تاريخ "حائر بين بان وآن" للإهمال الجسيم بحق مقبرة "أمين باشا الشمسي" وتعرضها للنهب.. وهنا راودني سؤال أين أسرته طوال هذه الفترة وهل لا يزور المقبرة أحد منهم؟

لا أعرف شيئاً عن موضوع زيارات أسرته لقبره، وكذلك لا أملك إجابة فيما يخص الفروع العائلية المباشرة لأمين باشا الشمسي غير ابنه "علي باشا الشمسي" (تحدثنا عنه في تاريخ حائر بين بان وآن) وبالعودة لأرشيف الصحافة المصرية لم يصادفني شيء عن الحياة العائلية لعلي باشا الشمسي سوى هذا الخبر من مجلة الاثنين والدنيا في عددها ٤٩٠ بتاريخ أول نوفمبر ١٩٤٣م، حول وفاة حرم علي باشا الشمسي وهي سويسرية الأصل (لا تذكر المجلة اسمها) وقد تعرف عليها أثناء دراسته في سويسرا ودامت خطبتهما عشرين عاماً! حتّى تزوجها عام ١٩٢٨م، وقد استمرت الجنازة ٢٠ دقيقة سيراً على سنة سعد زغلول باشا في اختصار الجنازات الوفدية وقصرها على ليلة واحدة للتعازي.. وتنقل المجلة النية لنقل رفاتها إلى سويسرا بعد الحرب والتي منعتها وهي على قيد الحياة من زيارة والدتها المريضة هناك وآثرت البقاء بجوار زوجها... هل أنجب علي باشا الشمسي منها؟! وهل تزوج بعدها وأنجب؟! وهل دفنت الزوجة الراحلة في سويسرا أم بقيت بمصر؟! وهل دفنت مؤقتاً في مقبرة الأسرة بالزقازيق؟! أسئلة حائرة تبحث عن إجابة ربما أجدها يوماً وأفرد لها مساحة في جزء جديد من هذه السلسلة من أسئلة القراء..

لكن وعلى عهدة الدكتور "محمد الجوادي" في مقاله "علي الشمسي باشا الذي هو النصف الأبرز الذي فاق الزعماء السبعة ونصف" فيذكر أنّ "علي الشمسي" كان "بمثابة خال لعلي صبري (نائب رئيس الجمهورية ورئيس المجلس التنفيذي أي مجلس الوزراء ووزير شؤون رئاسة الجمهورية ووزير الإدارة المحلية ورئيس جهاز

المخابرات العامة وأمين عام الاتحاد الاشتراكي) وحسين ذو الفقار صبري (شارك عبد المنعم عبد الرؤوف في تهريب الفريق عزيز المصري ذي الميول الألمانية بطائرتهما للالتحاق بثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق ضد الإنجليز، ولكن سقطت الطائرة بهم، وألقي القبض عليهم)، وكذلك الدكتور وحيد رأفت (كان على خلاف مع ثورة يوليو وصديقاً مقرباً من سيد مرعي)" ويروي الدكتور محمد الجوادي أنّ خلافاً نشب بين علي الشمسي وجمال سالم، فأخذ الأخير المعروف بعصبيته الشديدة "يطارده ناوياً ركله".. تصوّر ضابطاً بالأمس القريب يطارد رجلاً كان يوماً وزيراً للمعارف وهو ما زال طالباً بالمدرسة! قال تعالى: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران ٢٦)... نخلص من هذا أنّه ربما لا توجد فروع مباشرة لأسرة "أمين باشا الشمسي" في حدود بحثي المتواضع وما تيسر لي من معلومات وكلّها مجرد قربات بعيدة مما يفسر الحالة التي وصل إليها الضريح والتي توحي بأنّ لا أحد يتذكر صاحبه.

****

20- ما هو أجمل كتاب نادر صادفته في أدب الرحلات واغتبطت صاحبه وتمنيت لو عشت زمنه وحذوت حذوه؟

بالطبع تمنيت أن أعيش زمن الأستاذ "أحمد حسن غالي" الحائز دبلوم مدرسة العلوم والذي خاض رحلة نادرة وثرية زمن الخديوي "عباس حلمي الثاني" بالسكة الحجازية (أسسها **السلطان العثماني عبد الحميد الثاني لخدمة الحجاج المسلمين عام ١٩٠٠ م وجرى افتتاحها عام ١٩٠٨ م ثمّ دمرت بعدها بثماني سنوات فترة الحرب العالمية الأولى**) جمعت أطهر بقاع الأرض فزار المدينة المنورة والروضة الشريفة في شهر رجب فضلاً عن المسجد الأقصى وصخرة بيت المقدس ومدن القدس ويافا والخليل وبيت لحم ووضع وصفاً لكلّ ما شاهده مع مناسك الحج والعمرة في كتاب "دليل الوصول إلى زيارة الرسول.. هدية الأسطول العثماني.. المطبعة الجمالية بحارة الروم بمصر - الطبعة الأولى ١٩١٤م.. خصّص المشتركون في الطبع من أرباحه.."

****

21- هل الأوراق التاريخية التي تباع على الأرصفة وتختلف في محتواها عن الثوابت تهملها ولا تضمها في كتبك؟

لقد وضعت في كتابي (نزهة الألباء في مطارحات القراء) تعريفاً لهذه المسألة واشتراطاتها التي وضعتها اجتهادياً، ولكن هذا لا يمنع من الاقتباس من بعض أفكارها إن صلحت ومن أمثلة ذلك "إذن" شاهدته عليه خاتم ناظر المعارف حسين فخري باشا بقيد موظف مستجد صادر من قلم المستخدمين بنظارة المعارف العمومية في ٢١ أكتوبر ١٩٠٥م وهو المستر فنش **(Mr Finch)** كمدرس لغة إنكليزية بالمدرسة الخديوية براتب أربعة وعشرين جنيهاً وهو حاصل على "بكالوريا في الأدبيات" من كامبريدج ١٩٠٤م أي تقريباً خبرته تقترب من العام وهي خبرة قليلة إذا ما قورنت بارتفاع الراتب، وكشأن كلّ عقود التعيين والتي تتضمن مدة تحت الاختبار، وهي سنة على الأقل وسنتان على الأكثر بشرط أن "يُمضي امتحاناً بنجاح في اللغة العربية" وهو الشرط الذي لم يسبق أن رأيت إشارة له في أي كتاب تناول عمل الأجانب في مصر.. وأياً كان وضع الورقة التاريخية من حيث الصحة أو درجة التقيد بهذا الشرط الذي ربما كان في حينه مسألة روتينية لا تطبق بحذافيرها في دولة يحكمها محتل فأنا أرى أنّها فكرة يمكن تطويرها واستخدامها فمن الضروري أن يكون هناك امتحان للغة العربية كشرط لعمل الأجانب بالدول العربية كافة وبدرجة محددة مثل:" **IELTS, TOEFL** "وهو شرط كفيل بالنهوض باللغة العربية ووضعها في مصاف اللغات الحية والمطلوبة حول العالم...

22-هل كلّ المعاونين بقصر الملك فؤاد كانوا من الأجانب كما ألمحت في كتابك "صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر"؟!

كان الملك فؤاد يميل للعناصر الإيطالية بقصره ومن أهمهم "فيروتشي" كبير مهندسي القصر و"أنجلو ساماركو" أحد المؤرخين الذين استعان بهم فؤاد لكتابة موسوعة تاريخ مصر عبر العصور و"كافاتسي" مدرب الكلاب و"ميلانيزي" رئيس فرقة الموسيقى بالقصر وكذلك "جيور جيوجارو" حلاق الملك وكان يتقاضى جنيهاً مصرياً في اليوم نظير حلاقة ذقن الملك صباحاً و"ليعمل لجلالته التواليت" بعد الظهر! وكانت الأدوات المستخدمة في الحلاقة من الفضة وتعتني بها إحدى جواري القصر..

أما حلاق الخديوي "عباس حلمي الثاني" فكان يونانياً يدعى "ثيودوروس أيقاليوتس" وذلك استناداً إلى ورقة تاريخية بإذن سفر عام ١٩٠٨م تحمل اسمه ونسترشد بها على سبيل الاستئناس.

تقريباً العنصر المصري كان يشغل مساحة كبيرة بالمطبخ الملكي وهو ما يمكن تتبع خيوطه من كتب الطهي التي تحمل أسماء طهاة الملك مثلاً كتاب "مرشد الطباخ الحديث" تأليف "محمد علي أبو السنون (بيتا علي) العشي بمطابخ جلالة الملك الخصوصية" الطبعة الأولى ١٩٣٢م وكتاب "فنون الطهي الحديث" لمؤلفيه "أبو زيد أمين (طاهي السير فكتور هراري باشا وطاهٍ خصوصي بالمطابخ الملكية سابقاً) وطغيان سعيد (حلواني خصوصي بالسراي الملكية) "الطبعة الأولى ١٩٣٤ م وقدم للكتاب "محمد بسيوني" كبير طهاة مولانا جلالة الملك "فؤاد الأول"... وتحفل مواقع

الصحف على شبكة الإنترنت بأحاديث مع عدد من أحفاد طباخي القصر ونظراً لعدم توافر وثائق تاريخية تدعم رواياتهم، فقد اعتمدت على ما توفر لدي من كتب نادرة أدرجتها هنا...

****

23-في كتابك "تاريخ حائر بين بان وآن" اعتبرت أنّ الماضي كان زمن الفوضى الدوائية بلا منازع وأن مستحضرات كثيرة كانت تخلو من نشرة بمحتوياتها والكثير منها مبالغ في الدعاية عن استخداماتها وبالتالي يفوق ضررها نفعها.. فما هو شكل الإعلان الذي يشعرك بالرضا بعض الشيء من أرشيف الصحافة المصرية؟

سأعطيك مثالاً لهذا الشكل المرضيّ من الإعلان من مجلة الاثنين العدد ١٩١ في ٧ فبراير ١٩٣٨م، وإعلان عن "لزقة الكوكس".. الإعلان اتخذ شكل المقال وبدا عنوانه صادماً ومبالغاً فيه بعض الشيء "كاد يموت وشفته إحدى المعجزات".. وعلى عادة إعلانات زمان فهو يبدأ برصد تجربة إحدى السيدات للزقة مع زوجها الذي يعاني "ألم اللمباجو (تصلّب الظهر) الفظيع الذي يشبه قطع السكين أو تعذيب عرق النساء"... نمضي من الشق الدعائي وهو مقبول على كلّ حال إلى الشق الطبي وهنا لا يهمل الإعلان ذكر مكونات اللزقة وهي من الأمور النادرة في إعلانات زمان حيث يذكر أنّها تحتوي على "كابسيكم أي الفلفل الحار" و"فرانكنسنس أي اللبان المنشاري" علاوة على شرح عملها أنّ "حرارتها المفيدة تتغلغل في جميع الأجزاء المصابة كأنّها تدليك ذاتي فتزيل الألم وتنشط الدورة الدموية وتمنع الاحتقان وتجلب الشفاء."

والإعلان في هذا الشق لا يختلف كثيراً عما نعرفه عنها فبحسب موقع "ويب طب" فاللصقة تحتوي على مركبات من بينها: المنتول **Menthol** ، والكافور **Camphor** تساعد على تخفيف الآلام، حيث تمتص المكونات أثناء وضع اللصقة على مكان الإصابة، مما يؤدي إلى ارتخاء العضلات ونشاط في الدورة الدموية في المنطقة المُصابة.

الأهم أيضاً في هذا الإعلان أنّه تضمّن وضع علامات لمنع الغش في المنتج فاللزقة "مرسومة بماركتها المسجلة الدائرة والنسر الأحمر وأعلى كلّ غلاف **Allcock porous plaster"...** جميل هذا المنحى والذي تطور حالياً إلى نظام "الباركود" على العلب الدوائية لتتبع مصدرها والحيلولة دون الغش التجاري.. لكن هذا لا يكفي مع ظواهر انعدام الضمير المتفشية في المجتمع المصري لدرجة غش أدوية القلب والسرطان بما يتطلب نظام إلكتروني شامل ترعاه الهيئات الحكومية المعنية يربط كافة المستشفيات والمستودعات والصيدليات الحكومية والخاصة والأهلية لمراقبة المستحضرات الطبية خلال دورتها الكاملة من المنشأ وحتّى الاستهلاك للقضاء التام على الغش في هذه السلع الحيوية الهامة لحفظ حياة المرضى...

****

24- تعرضت في كتاب "نوستالجيا الواقع والأوهام" لنماذج من إساءة استخدام الديموقراطية والخوض في أعراض الناس مثلما فعل "بيرم التونسي" مع الملك فؤاد و"مصطفى أمين" مع الملك فاروق فهل كانت الصحافة شريكة في استفحال هذا الأمر؟

هناك صحافة جادة كان لها خط معين لا تحيد عنه في التعامل مع حياة الناس الخاصة وعدم الخوض فيها وصونها والعمل على تهذيب المجتمع وحسبنا أن نورد رأي اللطائف المصورة في هذه القضية التي شغلت الصحافة قديماً وحديثاً، بل وأدت إلى تعرض بعض الصحفيين للغرامة تارة، بل والقتل في بعض الحالات.. تقول اللطائف المصورة في ٢٢ نوفمبر ١٩٢٦ م: "جعلت بعض الصحف الأسبوعية من دأبها أن تنال من أعراض الناس.. وكان من نتيجة ذلك تلك الفاجعة التي ارتاع لها الناس وهي مقتل صاحب جريدة "أبي شادوف" وإننا وإن كنا نعتقد أنّ الصحافة أجل من أن تتخذ وسيلة للتعريض بالناس ونتمنى أن تتنزه عن هذه الصغائر التي تحط من قدرها إلا أننا نستنكر تماماً تلك الوسيلة الممقوتة التي يتبعها بعض الناس في سبيل القصاص ممن يحسبون أنه قد أساء إليهم في عرضهم وكان أولى بهم أن يلجؤوا إلى القضاء العادل فهو المرجع الأعلى للجميع والعدالة متيقظة لا تغفل حماية الجميع وترجع الحق المهضوم إلى صاحبه المفجوع فيه " واستخدمت المجلة صورة تعبيرية للقضاء المصري العادل في صورة امرأة شامخة بإحدى يديها ميزان العدل وفي الأخرى سيف وهي تقول: "العدل بين الأنام يا همام قبل كلّ شيء" بينما يجلس أمامها رجل مسن يرتدي طربوشه وفي يديه الأغلال ويقول: "الرحمة الرحمة" وكتبت تحتها المجلة "أمين همام حمادي" المتهم بمقتل "الصحافي"... والقضية المثارة وقتها كانت تتعلق بمقتل المرحوم "محمد شرف" صاحب جريدة "أبي شادوف" الأسبوعية

وصدر الحكم في ١٣ إبريل ١٩٢٧م، على المتهم الأول "محمد أبو العلا" بالسجن عشر سنوات وعلى المتهم الثاني النائب المحرض على القتل "أمين أفندي همام حمادي" مع تعويض ٢٠٠ جنيه لعائلة القتيل بحسب ما جاء في أرشيف مجلة المصور..

الطريف أن تجربة جريدة "أبي شادوف" في مصر وتعرضها للحياة الشخصية للبعض قد سبقتها تجربة أقدم، ولكن من مدينة "يافا" الفلسطينية حيث أصدر "وهبة أفندي تماري" عام ١٩١٢م، جريدة هزلية تحمل نفس الاسم "أبو شادوف" ولها نفس المنهج في التعريض بالناس وقد أقام "قسطة أفندي الخوري" دعوى على الجريدة وحصل على حكم بعشر ليرات عثمانية... لكن ما هو السر في اسم "أبي شادوف"؟!

ربما كان سيراً في ركاب كتاب "هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف" للشيخ يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضري المصري الشربيني وهو كتاب مصري هزلي يكشف عن الظلم الواقع على المصريين في ظلّ الحكم العثماني من الكشاف والملتزمين والسخرة التي يتعرض لها الفلاحون البؤساء التعساء كما يبرز حجم التردي والجهل بين شعراء القرى وفقهائها ومتصوفيها وينسج قصيدة من قدح خياله ينسبها لشاعر قروي عامي يدعى "أبو شادوف "من سبعة وأربعين بيتاً يشكو فيها حاله وزمانه، ويسجل فيها أمنياته ومن بينها بعض الأطعمة ومن هذه الأبيات:

"ولا ضرني إلا إن عمي محيلبة، يوم تجي الوجبة علي يحيف.
ومن نزلة الكُشَّاف شابت عوارضي، وصار لقلبي لوعة ورجيف.
ويوم يجي الديوان تبطل مفاصلي، وأهُرُّ على روحي من التخويف.
ويا دوب عمري في الخراج وهمه، تقضى ولا لي في الحصاد سعيف.

ويوم تجي العونة على الناس في البلد، تخبئني في الفرن أم وطيف".

ومعنى "القحوف" بالعنوان من "القحف" وهو الجزء الخلفي والعلوي من الجمجمة والذي يحوي الدماغ ويعطي معنى اليبس والخشونة وأراد به الكاتب الصوف الطويل الذي يلبس على الشعر مثل البرانيط والطراطير واللبد ويستعمله الفقراء وغالب "الخلابيص" والخلابيص: مفرد خلبوص وهو صبي الراقصة.

****

25- ما هو أطرف استطلاع للرأي شاهدته في أرشيف الصحافة المصرية وأريد منك مثالاً واحداً فقط؟

هناك الكثير وقد أوردت العديد من أمثلتها بكتبي خاصة كتابي "هوامش على دفتر أحوال مصر" لكن أما وطلبت مثالاً واحداً فقط ووضعتني في مأزق الاختيار الواحد، فسوف أطرح هنا واحداً من أجرأ استطلاعات الرأي، والذي أخذ أيضاً شكل مسابقة نظمتها مجلة الدنيا المصورة ورصدت لها جوائز نقدية حملت عنوان "لو أصبحت ديكتاتوراً.. فماذا أول عمل تباشره؟!" ونشرت المجلة النتائج في عددها يوم ٣ أبريل ١٩٣٠ م على صفحة كاملة وسأنتخب من بين الآراء الفائزة أطرفها وهي على النحو التالي: (فيكتور عبده شمله من طنطا غربية: "حصل على الجائزة الأولى وقيمتها ثلاثة جنيهات وأول عمل يقوم به إهداء نيشان الإخلاص لوالدته التي زرعت بين جوانحه حب الوطن وعلمته حب الإنسانية كما سينصب لها تمثالاً في أكبر ميادين العاصمة وتحته: لا تهان أمة فيها مثل هذه الأم "-محمد كامل طباره من بيروت: "حصل على الجائزة الثالثة وقدرها جنيهاً واحداً وأول أعماله سيتخلص من زوجته السمجة ويعدم حماته الثقيلة الثرثارة "-محمد حسن عبد الرحمن من الإسكندرية: "سيردم قناة السويس بعد ٢٤ ساعة من توليه (ربما لتسببها في إثارة المطامع الدولية نحو مصر والاحتلال البريطاني صورة من ذلك)". حسن حلمي عرفة من حلوان: "جعل الشريعة الإسلامية مكان القانون فالزاني يرجم أو يجلد والسارق تقطع يده (انظر مناخ الحرية الذي يسمح بنشر مثل هذا الرأي وفي مجلة كانت تصدرها دار الهلال التي أنشأها الكاتب المسيحي اللبناني جورجي زيدان)".

26- كيف تقيم الفرق بين الفنانين قديماً وحديثاً من وحي أرشيف الصحافة المصرية؟

الحقيقة أنا لم أهتمِمْ بتتبع أخبار الفنانين وما أكثرها على صفحات الصحف والمجلات في الماضي فهذه مهمة شاقة ولها من ينشغل بها كما أنّني وبصراحة تامة أعتبر ما يمكنني بذله في هذا المسعى جهداً ضائعاً بالمقارنة بما أفعله الآن من البحث في الأرشيف عما هو نافع وجاد أو يحمل قيمة أو فكرة يمكن استثمارها مع نقد سلبيات الماضي ومناقشة طريقة تفكير الناس وثقافة المجتمع عبر العهود المختلفة وهذا واجب أخلاقي يستحثني ضميري طوال الوقت على إنجازه في أفضل صورة مهما كبّدني الأمر من جهد ومثابرة ومشقة وعناء واعتبر ما قدمته حتّى الآن في هذا المسار البحثي من قبيل المبتكرات في الكتابة التاريخية...

لكن لا بأس أن نناقش مثالاً من الماضي يرصد نظرة الممثلين للفن وعدم الاهتمام بالمادة فمثلاً في العدد ٨٦٦ من مجلة الاثنين والدنيا في ١٥ يناير ١٩٥٠ م ومحاولة من المجلة لإقناع بعض الفنانين بتقمص دور "عزرائيل" لمدة ٢٤ ساعة وماذا سيكون فعلهم وقتها وجاءت إجاباتهم على النحو التالي: (يوسف وهبي: "سينذر الذين يعرقلون النهضة المسرحية فإن لم ينتهوا قبض أرواحهم "-آسيا : "أقبض روح من يفكر في مهاجمة السينما المصرية "-رجاء عبده: "أقبض ثلاثة: الناقد الذي يهاجم الفيلم المصري والممثل الذي لا يحترم فنه والممثلة التي لا تقيم وزناً لشرف الفن وكرامته "-فريد الأطرش: "سرٌ خطير لا يجوز لي إذاعته"-زينب صدقي: "تقبض روح بنت ذوات لا عمل لها إلا مهاجمة الممثلات والإساءة لسمعتهن" -فاخر فاخر: "أقبضُ

روح كلّ شاب يفكر في الاشتغال في الفن وهو غير موهوب" -شادية: "أقبض روح الممثلين والممثلات الذين ينفقون ثرواتهم على الميسر").

رحم الله ممثلي الماضي فلو شاهدوا الفن اليوم لتمنوا دون تردد أن يقبضوا أرواح كثير من فناني الحاضر بفرض أنّهم بالفعل ينتمون لرسالة الفن ويمكن أن نقتبس من الأستاذ يوسف بك وهبي مصطلح طريف يناسب هذه الفئات من مدعي الفن وهو "البرك الأخلاقية" التي تتولد فيها ميكروبات الإخلال الأخلاقي الشائع في مختلف مناحي الحياة، كما يمكننا أيضاً أن نلتمس لذلك الحلول من حديث طريف للرجل مع محرر دار الهلال نشرته مجلة الاثنين والدنيا في العدد ٦٦١ في ١٠ فبراير ١٩٤٧م. وجاء فيه اقتراحات وجيهة لردم هذه "البرك الأخلاقية" عبر تربية الذوق الفني عند الجماهير ونشر المسارح والسينما الثقافية في القرى والعزب والكفور..

****

27-هل تعطينا أمثلة لأغرب القضايا التي صادفتها في أرشيف الصحافة المصرية على أن تكون أمثلة جديدة لم يسبق أن أوردتها في كتبك السابقة؟

المثال الأول: من أغرب القضايا في شهر رمضان الكريم ما جاء في مجلة الدنيا المصورة في ٥ فبراير ١٩٣٠ م. قضية "إمام أبو الخير" والذي حضر من بلدته "جرجا "برفقة زوجته " فاطمة السيد حسن " واتخذا مسكناً بحي " القللي " القريب من ميدان المحطة وراحا يعملان في تجارة الفاكهة وتوزيع الخضروات على التجار.. تغيرت حياة الزوج وانقلبت رأساً على عقب حينما تعرف على أحدٍ من قرناء السوء فزين له طريق إدمان "الكوكايين" فبدد كلّ ما يملك في سبيل "الكيف " وباع عربة " أكل العيش " وحتّى" الملابس "ويا ليت الأمر توقف عند ذلك بل حتّى مستقبل ابنه البالغ من العمر خمسة عشر عاماً قد أضاعه حينما أخذه معه لطريق الإدمان وصار يرسله ليشتري له من "عشش الترجمان "ببولاق... تبرأت الزوجة منهما وبدأت تشق طريقها للعيش بمفازاة عن زوجها فعملت" دلالة "تتاجر في" الحاجيات النسائية البسيطة "حتّى اجتمع لها رأس مال متواضع يسترها... في نفس الوقت كان الزوج والابن قد أعيتهما الوسائل لجني المال وإنفاقه في الطريق الحرام فتارة يعملان بالسرقة ويوهما الناس بالقدرة على "تطليع الثعابين من الشقوق والعقارب من البيوت" ملتمسين بركة الرفاعي.. يا رفاعي مدد" ثمّ يغافلان أصحاب البيت ويسرقان أي شيء تطاله أيديهما الآثمة: "أوان نحاسية " أو " ملابس "ثمّ يوليان الأدبار وفي إحدى المرات- وكأنّ الرفاعي قد كره أن يكون ذكره في حوادث النصب - ضُبِطا بالسرقة وضُرِبا ضرباً مبرحاً جعلهما يتوبان عن السرقة ويتجهان للنصب..!!! يقولون في المثل: "الحاجة أم

الاختراع" ويقولون أيضاً: "إنّ الحاجة تخلق الحيلة" فتفتق ذهنا صاحبينا عن حيلة طريفة حيث ادعى الأب أنّه من أولياء الله الصالحين وأنّه صديق" السيد البدوي" ولبس عمامة حمراء وفي يده سيف خشبي طويل وراح يجوب القرى ويطوف الضواحي النائية مدعياً قدرته على قراءة الأفكار وشفاء المريض والمرأة العاقر، وذاع أمره بين البسطاء وانطلت حيلته على السذج ولكن حتّى حين! ففي إحدى المرات ارتاب عمدة إحدى القرى في هيئتهما الرثة واصفرار وجههما على غير شاكلة الأولياء الذين تنتفخ بطونهم من النعمة وتعلو كروشهم من جيوب الفقراء، فقبض عليهما وأرسلهما إلى مركز البوليس في حراسة "الخفر".. لكن بعد تفتيش أمتعتهما وعدم العثور على شيءٍ مريبٍ يدينهما أخذ البوليس عليهما تعهداً بعدم التجوال في البلدان..

وهكذا أوصدت الأبواب جميعًا في وجههما ولم يعد أمامهما سوى سبيل واحد! قدح الزوج زناد فكره واهتدى إلى العودة لزوجته وسلب ما تجمع لها من رزق قليل بحيلة ماكرة غريبة.. حيث تظاهر الزوج وابنه بالإقلاع عن الإدمان والتوبة واستقرا في منزل الزوجة بعد غياب خمسة أشهر وراحا يدبران لما عقدا عليه العزم من الاستيلاء على أموال السيدة المسكينة.. وفي الصباح تعالى صوت الابن وصراخه وعويله ودموع التماسيح تنساب من عينيه" مدراراً " مدعياً موت أبيه وهنا طلب الابن من والدته الإسراع بإحضار النقود لشراء كفنٍ لوالده.. فلم تجد الزوجة بداً من إحضار النقود فتتبعها الابن وعرف مكان المال المخبأ وسرقه ثم أعطى "إشارة خفية" متفق عليها لوالده المتظاهر بالموت فرفع الغطاء عن وجهه وراح يحرك عينيه فتحول الحضور من الحزن إلى الفرح والسرور بعودته للحياة

وظنوا جميعاً أنّ الرجل كان في حالة غيبوبة وأفاق منها.. ذهبت المرأة مرة أخرى لإحضار" بضعة قروش" فوجدت أن المال قد سرق وأن زوجها قد غافلها وهرب مع ابنه...

المثال الثاني: من مجلة الدنيا المصورة في ٣ أغسطس ١٩٣٠م وجناية الشروع في قتل من أجل عدد من مجلة "المصور" وتتلخص القضية أنّ "عبده السيد السبعاوي" غلامٌ في الخامسة عشر من عمره، يعمل صبي إسكاف عند صانع أحذية بدرب الجنينة ويسكن بسكة الكومي وكان له شقيقة تكبره تجيد القراءة والكتابة ومتيمة باقتناء مجلة "المصور" وقراءتها. تنتظرها على أحر من الجمر أسبوعياً وترقب شقيقها من النافذة حتّى يأتي بها والويل ثمّ الويل إن نسي شقيقها "عبده" إحضارها معه فليلته ستكون سوداء!! وحدث أن نسي "عبده" إحضار المجلة في إحدى المرات حتّى نفد العدد وتصادف أنّ زميله في العمل ويدعى "عيسى أحمد صالح" كان لديه نفس الشغف في اقتناء "المصور" ولديه العدد الذي فات "عبده" فطلبها منه على سبيل الاستعارة ثمّ دفع بها لأخته وخشي أن يطلبها منها مرة أخرى معتبراً أنّ "غضب زميله أهون من غضب أخته" وراح يماطل صاحبه ثمّ ادعى أنّه فقدها عارضاً عليه أن يدفع ثمنها.. لكن "عيسى" لم يقبل ونشبَ بين الزميلين شجارٌ على إثره تناول "عبده" سكين "الصلب" التي يستخدمها في عمله وسدد عدد طعنات في وجه زميله "عيسى" فأغمي عليه، وقد اشتدّ به النزيف وحضر البوليس والإسعاف وحمل "عيسى" إلى مستشفى "القصر العيني" بينما أودع "عبده" السجن.. ذكرتني هذه القضية بأني كنت شغوفاً باقتناء صحيفة "الأهرام" وأنا صغير خاصة عدد الخميس وكان والدي يلبي هذا الطلب عن طيب خاطر، ويعلم أنّه لو نسي فسأغضب شديداً..

وكنت حتّى لا ينسى أكتب له في ورقة صغيرة "لا تنسَ" وفي إحدى المرات وعلى سبيل المزاح زيدت بالورقة كلمة "مفهوم" وحدث أن أحد أصحاب المكتبات وكان رجلاً طاعناً بالسن ولم يرزق بالذرية، فكان يقضي وقته في المكتبة وينام أحياناً في سردابها رأى الورقة مع والدي وأنكرها، واستفسر عن مغزاها، فلما قصّ عليه والدي المسألة.. علّق الرجل قائلاً: "ولو مجبتش الجورنال يا فتحي.. هيضربك يعني؟!" ومن وقتها خجلت ولم أعِدها مرة أخرى ومع دوران الأيام، فقدت شغفي بالأهرام ولم أعد أتابعه...

المثال الثالث: من أرشيف الدنيا المصورة أيضاً عام ١٩٢٩م حيث حدث أن اشترى "عبد الحميد بك رستم" أحد هواة تربية الكلاب أثناء رحلته بإنجلترا كلباً ثميناً ونادراً من النوع "جريت دي" ودفع للكابتن "ستراتون" مقابله "مائة جنيه".. كان الكلب من النوع الشره للطعام وكبير الحجم فكان يأكل "بسكويتاً وخبزاً" صباحاً وستة أرطال من لحم "الضأن" في الظهر ومثلها في العشاء.. ذات يوم خرج الكلب من الحديقة ليتجول في أحد شوارع "الزمالك" وهناك أطلق عليه النار شخص هنغاري الجنسية يدعى المسيو "جامبوسى" من نافذة أحد المنازل بالمنطقة فأرداه قتيلاً، ثمّ اعترف في مذكرة لقسم "عابدين" أنّه قتله بسبب الإزعاج! مدعياً أنّه تحت الحماية "الفرنسية" وهو ما اتضح عدم صحته بعد ذلك وأنّه تحت الحماية "المصرية" فرفعت النيابة قضية ضده متهمة إياه بضرب النار في الشارع وإزعاج السكان وقتل حيوان عمداً.. كما تقدم "عبد الحميد بك" بدعوى ضده للمطالبة بتعويض مادي قدره "مائتي جنيه" في سابقة هي الأولى في المحاكم المصرية...

الطريف في القضية أنّ الكلب الفقيد ويدعى "جيبسي برنس" كانت له شجرة نسب وشهادة ميلاد، وكان عضواً مميزاً بنادي "كنل كلاب"، وكان أبواه حائزَين على جوائز جمال عدة! كيف لا؟ والكلب المرحوم كانت إحدى عينيه زرقاء اللون والأخرى عسلية!

المثال الرابع: عن واقعة أوردتها مجلة الدنيا المصورة في عددها بتاريخ ١٢ يونيو ١٩٣٠م حاولت فيها أن تبرز زيف قدرات رجال "المندل".. وتعود الحادثة لعام ١٩٢٤م وقد جرت في قصر "قاسم باشا" بشارع سوق السلاح (انظر كتابي "هوامش على دفتر أحوال مصر" و"تاريخ حائر بين بان وآن" للمزيد عن هذه الشخصية) وكان القصر وقتها في حوزة بعض أهل دارفور ممن توارثوه من أهل بيت السلطان "حسب الله" سلطان دارفور الذي حددت الحكومة المصرية إقامته فيه هو وأمراء بيته.. وحدث أنّ السيدة "ن" وكانت في سابق عهدها خادمة لدى "قاسم باشا" وزوجته قد حدثت أخاها بأنّ زوجة "الباشا" كانت كلّ شهر تغلق الأبواب وتدخل غرفتها الخاصة وتأمرها أن تحمل عنها أكياساً من الذهب وتمسك "شمعة" وتفتح باباً في حائط الغرفة وترفع "بلاطة كبيرة" ثمّ تنزل بها سلماً وتفتح باباً آخر، وتدخل وحدها الغرفة بعد أن تتناول منها الأكياس ومع خروجها من الخدمة مع بعض التغييرات في المكان نسيت مكان الكنز..

على الرغم من أنّ القصة كانت تبدو أقرب إلى قصص "ألف ليلة وليلة" لكنها كانت قابلة للتصديق بحكم الدخل الهائل للباشا والذي لم يخلف عقباً ولم يكن يضع أمواله في البنك خشية من شبهة الربا.. اتفق الأخ مع بعض من "الدارفوريين" سكان القصر بواسطة شيخ الحارة على الحفر داخل القصر لاستخراج الكنز وقد عزز من

أقوال السيدة "ن" أحد رجال "المندل" قد أكد روايتها بحذافيرها وأقسموا جميعاً على المصحف على اقتسام الكنز الذي لم يخالجهم شك للحظة في أنّه مهول وبعد أن بذلوا مشقة عظيمة في الحفر وصاحب "المندل" يوهمهم بقراءة "عزائم" لصرف "عمار المكان " حتّى لا يهربوا بالمال وهم من ورائه في شغل عن هذا يداعب أفئدتهم "بريق الذهب" المنتظر وما إن انفتح الباب حتّى وجدوا "رائحة كريهة" تزكم أنوفهم ومنوا جميعاً بالحسرة والخيبة على ما أنفقوا من جهد خلف عبث وضلال.. !!

****

المراجع والمصادر

1- كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتي.
2- علاقة الدولة الحديثة بالأوقاف.. محمد علي باشا وآليات السيطرة على الأوقاف للباحث مصطفى محمود علي جمعة –مجلة مصر الحديثة.
3- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية لتقى الدين المقريزي
4- صناعة الكذب لياسر بكر.
5- مجموعة مؤلفات محمد فتحي عبد العال (40 كتاباً).

****

الكاتب في سطور

د. محمد فتحي عبد العال

(جبرتي الجائحة وعماد التاريخ)

كاتب وباحث مصري

من مواليد الزقازيق محافظة الشرقية بمصر عام ١٩٨٢

المؤهلات العلمية:

1-بكالوريوس صيدلة جامعة الزقازيق ٢٠٠٤.

2-دبلوم الدراسات العليا في الميكروبيولوجيا التطبيقية جامعة الزقازيق ٢٠٠٦.

3-ماجستير في الكيمياء الحيوية جامعة الزقازيق ٢٠١٤.

4-دبلوم الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية من المعهد العالي للدراسات الإسلامية٢٠١٧.

5-شهادة إعداد الدعاة من المركز الثقافي الإسلامي التابع لوزارة الأوقاف ٢٠١٧.

6-دبلوم مهني في إدارة الجودة الطبية الشاملة من أكاديمية السادات للعلوم الإدارية ٢٠١٧.

****

منافح الأيك في مساجلات النخب

(على خطى النقد البناء)

الدكتور

محمد فتحي عبد العال

الطبعة الأولى
1444 هـ 2023 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد
جوال: 00201211132879
00201030502390
E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر .